

دكتور
محمد سيد محمد السيد

قضية التكفير في الفكر الإسلامي

الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

دار الطباعة المحمدية
٣ شارع الأنوار بالأزهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد :

فالفكر الإسلامى له عطاءؤه المتواصل ، الذى يرتكز على
أصليين عظيمين هما : القرآن المجيد والسنة المطهرة . . . ، ويقوم فى
منهجيه على نقاء العقل وصفاء الفهم ونور اليقين .

وقد تعددت المذاهب واختلفت الآراء ، ومع ذلك فإن الحق
أبلىج ، مطمئن إليه النفس ، وينشرح به الصدر ، ويسرى إلى العقل
والقلب .

ليكن كما قال الإمام البوصيرى :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

وتعد قضية التكفير من القضايا التى شغلت الفكر الإسلامى
على مدى تاريخه الطويل ، واختصم حولها الفرقاء ، وتبقى كلمة الحق
عالية رغم دعاوى القوم والغلواء ، لأنها كلمة الله الملك الحق المبين .

وقد جاء هذا البحث على مجموعة محاور :

• التوبة وشروطها وأعمال الخير التي يمحو الله بها الخطايا
فالتوبة تجب ما قبلها وتبدل السيئات حسنات .

• الكبيرة وتعريفها ومذاهب العلماء في حكم مرتكبها ، وبيان
مذهب أهل السنة والجماعة الذين يجمعون في اجتihadهم بين العقل
والنقل وبوقوعهم بين النصوص ويعلمون أنهم لا يكفرون أحدا
من أهل القبلة بذنب ما لم يستحل .

• موقف أهل السنة من النصوص الشرعية التي توجب حكم
الكفر على بعض كبائر الإثم والفجور ، وبيان أن هناك كفرا
دون كفر، وشركا أصغر لا يخرج عن الملة .

• الحكم بالكفر في آثاره الدنيوية والأخروية ، وبيان أن
الحكم بالكفر من طامة الناس يقع على الأوصاف ، ومن أولياء
الأمور والقضاة يقع على الأشخاص بالحق وببينات الأدلة وشواهد
البقين .

• الحاكمة في مفهومها الشرعي تعني أن يحكم الناس أنفسهم
بمنهج الله عز وجل ، ويقوم بها رجل لا عصمة له ، مطالب أن

يلتزم بشرع الله ودينه ، وهو ليس أفضل الناس ولكنه أكثرهم حملا وأعظمهم أمانة .

• نظرة إلى الفرق الإسلامية تؤكد أن الاختلاف في فروع الدين لا يمثل شقاقا في الأمة بل إنه يعد من يسر التشريع وسماحة الاجتهاد .

وأن اختلاف الأصول رغم مضمته — لم يصل في الأمة الإسلامية إلى مرتبة أن يقال : هذا كافر وذاك مؤمن .^(١)

فالمسلمون تجمعهم كلمة التوحيد ، ويتحلقون حول السكينة المشرفة ، وتخضع قلوبهم للقرآن العظيم ويلتزمون بأركان الدين .

• موالاة الكافرين مرفوضة شرطا وهي تعنى الحياة للأمة والتفريط في الدين ونقل أسرار المسلمين إلى أعدائهم المحاربين .

وهذه الموالاة تختلف اختلافا كبيرا عن الـبن بأهل الذمة ، والتعاون مع كل من ألقى إلينا السلم ولم يظاهر علينا أحدا .

فإن شواهد القرآن ووقائع السيرة النبوية تؤكد سماحة

(١) الفرق المنتسبة إلى الإسلام ليست مرادة هنا كفلاة القبيلة والبهائية ..

الإسلام والمسلمين ، وتدعو إلى التعاون المشترك لمصلحة الأمن العام
وفي إطار التعارف البشري وكرامة الإنسان .

وما أسعد الناس حين يعيشون عباد الله إخوانا
وما أجمل مشاعر الحب والوقت .

« ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل
في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » (١) .

غرة جمادى الآخرة ١٤١٣هـ (١)

٢٦ / ١١ / ١٩٩٢ م

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة — كلية أصول الدين

جامعة الأزهر

(١) سورة الحشر — الآية ١٠

(٢) سلطنا هذا البحث لوزارة الأوقاف في التاريخ المذكور لطبعه

ونشره مساهمة منا لوجه الله تعالى في تصحيح المفاهيم .. وإلى الآن

لا أدري ماذا تم بشأنه .. !!

المبحث الأول

التسوية

— حقيقة التسوية

— مكفرات الذنوب

حقيقة التوبة

جاء الأمر الإلهي بالتوبة عاما في قوله تعالى «وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» (١) ،

وحقيقة التوبة الشرعية إقلاع عن المعصية ، وندم على ما وقع ، وهزم على عدم العود إليها ، واستقامة على منهج الله .

فلا توبة مسح الإصرار فالذي يمارس المعصية ويقيم عليها لا توبة لها .

وقد لا يكون الإقلاع عن المعصية توبة ، وذلك كمن ترك المعصية لمعنى آخر غير الندم ، فن ترك الفاحشة لعدم استطاعته لها ، أو ترك الخمر لضررها وظل قلبه متعلقا بها لا يعد تابا .. فإن التوبة حمل قلبي تصحبه حركة الجوارح في استقامة واحدة نحو مرضاة الله تعالى .

ولكي يمحو المرء آثار معصيته يحتاج إلى التزود بالتقوى فإن الحسنات تذهب السيئة ، قال الله تعالى «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل» ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ، (٢) .

(١) سورة النور - الآية ٢١

(٢) سورة هود - ١١٤

وإذا كانت المعصية متعلقة بحقوق العباد فلا بد من رد المظالم إلى أهلها أو مسامحتهم فيها ، وقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه يوماً فقال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ، رواه مسلم .

إن العبد حين يبدأ طريقه إلى الله تعالى بالتوبة يأخذ في الترقى من النفس الأمارة بالسوء ، إلى النفس اللوامة ، إلى النفس المطمئنة التي أطمأنت إلى ربها في حكمه وحكمته ، وسلكت مسالك الأنبياء والصالحين ، واستحقت ذلك النداء الإلهي الكريم « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » (١) .

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر على سواء وتكون من الكفر والفسوق ، وتوبة الكافر هي إسلامه ، وتوبة العاصي هي

استقامته ، قال الله تعالى : قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، (١) .

والتوبة بهذا المعنى تلتقى مع الاستغفار فإن قولنا أشهد : استغفر الله ، يساوى قولنا له : تب إلى الله ..

فعند الافتراق يكون اللفظان بمعنى واحد ..

فإن اجتمع اللفظان في عبارة واحدة اختلف المعنى ، فإذا قلت أشهد في جملة واحدة : استغفر الله وتب إليه ، أصبح الاستغفار من معاصي الماضي وأصبحت التوبة من معاصي المستقبل ، بمعنى أندم على ما مضى من سيئاتك واحذر أن تفعلها في المستقبل ..

قال تعالى : ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ، (٢) .

والمسلم مطالب بالتوبة من الذنب وإن تكرر ، وكلما أحدث ذنبا جدد توبة ، معنى الله أن يهديه ، وفي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل قال : أذنبت عبد ذنبا فقال : اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنبت عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنبت

(١) سورة الأنفال — ٣٨

(٢) سورة هود — ٥٢

فقال : أى رب اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى : أذنب عيسى
ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنوب ..

ثم طرد فأذنب فقال : أى رب اغفر لى ذنبى ، فقال تبارك
وتعالى : أذنب عيسى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ
بالذنوب ، أحمل ما شئت فقد غفرت لك ، قال الراوى : لا أدرى
أقال فى الثالثة أو الرابعة أحمل ما شئت ، .

وقد وهم بعض الناس فظنوا أن مثل هذا الحديث دعوة إلى
استمرار المصيبة ، ولكن الحقيقة أن الحديث دعوة إلى التطهر
المستمر حتى لا يظل الشيطان قابعا فى عقل الإنسان وقلبه ، فإن
البديل للتوبة المتجددة هو سبيل المصيبة الدائم ، ولذا قيل للحسن :
ألا يستحي أحدنا من ربه ، يستغفر من ذنوبه ثم يعود ، ثم يستغفر
ثم يعود ١٩ فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه ، فلا تملوا من
الاستغفار .

مكفرات الذنوب

هناك من أحوال الخير والبر والمعروف ما يكسب الإنسان حسنات ويمحو عنه سيئات ويمنحه فضلا من الله وثوابا . . منها:

١ - الوضوء :

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجليه مع الماء أو آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب . .

٢ - دعاء الوضوء :

روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء .

٣ — صلاة ركعتين بعد الوضوء :

روى البخاري ومسلم أن عثمان رضي الله عنه توضأ ثم قال :
رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا ثم قال : من توضأ
نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم
من ذنوبه .

٤ — الأذان :

روى أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما : قال
قال رسول الله ﷺ : يغفر للمؤذن متى أذانه ويستغفر له كل
رطب ويابس .

٥ — الدعاء عقب الأذان :

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول
الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة
الطامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا
الذي وعدته — حلت له شفاعتي يوم القيامة .

٦ — الصلوات الخمس :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء قال : فكذاك مثل الصلوات الخمس يمحوا الله بهن الخطايا ،

٧ — السعى إلى المساجد :

روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال : من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة ، .

٨ — صلاة الجمعة :

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأقصد غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ، .

٩ — الصدقة :

روى الترمذى فى حديث معاذ ، قال رسول الله ﷺ : والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار .

١٠ - الصوم في رمضان :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

١١ - صيام يوم عرفة :

عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن يوم عرفة قال : يكفر السنة الماضية والباقية ، رواه مسلم والترمذى إلا أنه قال : صيام يوم عرفة لى أحسب على الله أن يكفر السنة التى بعده والسنة التى قبله .

١٢ - صيام عاشوراء :

عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال : يكفر السنة الماضية ، رواه مسلم .

١٣ - الحج :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

١٤ — العمرة :

روى للبخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة .

١٥ — طالب العلم :

روى أبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما وورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر .

١٦ — الجهاد :

روى الترمذي عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول دعيتان لا تمسهما النار ، عين بكمت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله .

(٢ — قضية التكفير)

١٧ - قراءة القرآن :

روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :
قال رسول الله ﷺ من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة
والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ،
ولام حرف وميم حرف .

١٨ - الذكر :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ
قال : من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله
الحمد وهو على كل شيء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل
عشر رقاب ، وكنتم له مائة حسنة ونحيت عنه مائة سيئة وكانت
له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل
 مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك .

١٩ - ابتلاء الحياة :

فى صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ : ما يصيب المسلم
من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها
إلا كفر الله بها من خطاياها ، رواه البخارى .

المبحث الثاني

حكم من تكب الكبيرة

- تعريف الكبيرة
- تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر
- مذاهب العلماء في حكم من تكب الكبيرة
- رد أهل السنة على المخالفين
- موقف أهل السنة من النصوص المكفرة

تعريف الكبيرة

اختلف العلماء في تعريف الكبيرة إلى آراء متعددة منها :

١ - ضبطها بعض العلماء بالعدد وقالوا إنها سبع أو سبع عشرة ، أو سبعون ، وحاولوا أن يحصروها من خلال النصوص الشرعية التي ذكرت أعدادا لها ، مثل قول رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات .

وقول رسول الله ﷺ : ألا أنهيكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

وسئل رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قيل : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشيعة أن يأكل منك ، قيل ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك .

وضبط الكبيرة بالعدد غير دقيق لأن جميع النصوص لا يدل على الحصر ، وكان رسول الله ﷺ يجيب كل سائل بما يناسبه ..

٧ — ذهب بعض العلماء إلى أن كل معصية تعد كبيرة نظرا
لمظمة الله العلي الكبير ، فكيف يصح الإنسان المخلوق الضعيف
مخالفة الأ عظم ؟ ١

وهذا المذهب يتنافى مع النصوص الشرعية التي تفرق بين
الكبائر والصغائر مثل قوله تعالى : إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه
نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ، (١) ،

٣ — عرف بعض العلماء الكبيرة بأنها ما اتفقت الشرائع على
تحريمه مثل الزنا والسرقه .

وهذا التعريف مرفوض لأن هناك معاصي حرمها الإسلام
وجعل اقترافها كبيرة ولم تكن محرمة في الشرائع السابقة مثل
شرب الخمر فقد لعن الله الخمر وعاصرها ومستهمها وشاربها
وساقها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها — كما
ورد بذلك الحديث الذي رواه البيهقي .

٤ — ضبطها بعض العلماء بتعريف قالوا فيه :

إن الكبيرة ما ترتب عليها حد في الدنيا .

ومن هنا أصبحت الكبائر محصورة في القتل والزنا والسرقه

والقذف والحرابة ، وهذا يتنافى مع النصوص الشرعية التي تثبت وصف الكبيرة لمعاصي ليس فيها حد مثل أكل الربوا وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين ... فهذه كبائر وليس فيها حد شرعى يقام على من تكبىها .

• — التعريف المختار هو أن الكبيرة ما ترتب عليها حد في الدنيا أو وعيد شديد في الآخرة .

وبذلك تتلافى الاعتراض السابق فإن عقوق الوالدين مثلاً كبيرة من الكبائر وإن لم يكن فيه حد شرعى يقام على المعاق ، فإن النصوص قد توعدته في الآخرة بعذاب شديد . .

تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر :

هناك أدلة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر ، منها :

١ - قوله الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » .

فقد جعل الله تعالى تكفير السيئات مترتباً على اجتناب الكبائر فتكون تلك السيئات هي الصغائر ، وإلا لما صح هذا التعليق ، فلو كان المراد بالسيئات الكبائر لأصبح المعنى إن تجتنبوا الكبائر نكفر عنكم السيئات وهذا المعنى باطل .

٢ — قول الله تعالى: «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش
إلا اللمم» (١).

قالهم هو صفائر الذنوب، من ألم إذا نزل نزولاً من غير لبث
طويل، ويقال ألم بالطعام إذا قلل من أكله..

٣ — وفي صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ: «رمضان إلى
رمضان، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر».

مذاهب العلماء في حكم مرتكب الكبيرة

اتفق العلماء على أن التوبة تجب ما قبلها ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، واتفقوا أيضا على أن من استحل معصية أو أسكر معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر . .

واختلفوا فيمن ارتكب معصية كبيرة غير مستحل لها بل فعلها وهو مدرك لحكم الله فيها ثم لم يتب من ذنبه وأصر عليه حتى مات . .

وكانت المذاهب في هذه المسألة على النحو التالي :

١ — الخوارج : وهم الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب بعد ما قبل التحكيم في نزاعه مع معاوية بن أبي سفيان .

وهؤلاء يكفرون مرتكب الكبيرة ويحكمون بخلوده في النار إن مات بلا توبة . .

ويستدلون بقوله تعالى : **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مَّتَعِدًا فِرَاقَهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** (١) .

ويقول رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ..

٢ — المرجئة : وهم الذين أرجأوا أمر الأمة إلى الله ، ولم يدخلوا في الصراع الدائر بين معاوية وعلى رضي الله عنهما .

وهؤلاء يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فإذا كان الكافر تذهب أعماله الصالحة هباء منثوراً لأنه فاقده للإيمان الذي هو أساس قبول العمل فإن المؤمن الذي استقر في قلبه الإيمان لا يضره ما يعمل من المعاصي ..

ويستدلون بقوله تعالى : « إن الله لا يقدر أن يشرك به ويفقر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً » (١) .

ويقول رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رما وإن سرق » ..

٣ — المعتزلة : وهم أصحاب واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري واختلف مع أستاذه ..

وهؤلاء يقولون إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن لأنه عمل

المعصية ، وليس بكافر لأنه ينطق بالشهادتين واسكنه في منزلة بين
المنزلتين ويسمونه فاسقا وهو خالد في النار . .

ويستدلون بمعوم الآيات والنصوص التي رتب العقاب على
المعصية مثل قوله تعالى : « ومن يهض الله ورسوله ويتعد حدوده
يدخله نارا خالدا فيها » (١) .

والعاصي عندهم اسم يتناول الفاسق والكافر وكلاهما خالد في
النار

وقوله تعالى : « إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون » (٢) .

والمجرم عندهم يتناول الكافر والفاسق . .

٤ — أهل السنة والجماعة : وهؤلاء يجمعون في اجتهادهم بين
العقل والنقل ، ويوفقون بين النصوص ويقولون لا تكفر أحدا
من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلله وما لم يكن من الكبائر المكفرة
كالشرك بالله أو إفساد معلوم من الدين بالضرورة . .

ويستدلون بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم
القتال في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأثني بالأثني فمن عفى

(١) سورة النساء — ١٤

(٢) سورة الزخرف — ٧٤

له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف
من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، (١) .

ووجه الاستدلال النداء بوصف الإيمان في قوله : يا أيها الذين
آمَنُوا ، وكذلك وصف القتال بالأخ في قوله : فمن عفى له من
أخيه شيء ، فسمى ولي القتل أخا للقاتل والمراد أخوة الإيمان
وليس أخوة النسب قطعا ..

وقد تحقق هذا المعنى أيضا في قوله تعالى : وإن طائفتان من
المؤمنين اختلفتا فاصالحوا بينهما ، فسيام مؤمنين وغم قتالهم ...

وجاء هذا المعنى في الحديث الشريف : « من كانت عنده مظلمة
لأخيه فليتحلله منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن
يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات
أخيه فطرح عليه » رواه البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه .

رد أهل السنة على المخالفين

الرد على الخوارج : يفهم أهل السنة قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها .. » على أحد الوجوه الآتية :

١ — الوصف بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق، فإذا قلت لشخص : « احترم العالم » فيكون سبب الاحترام هو العلم .

فقوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا ، أى قتله من أجل لإيمانه ، والقاتل حينئذ لا يكون إلا كافرا يتعقب المؤمن ، فالآية تتحدث عن قتل الكافرين للمؤمنين .

ولو كان المراد مطلق القتل ما كان للتقييد بوصف الإيمان معنى ، ولجاءت بتمهيد النفس بدل المؤمن ، كما قال تعالى « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » (١)

ولا يتصور أن يقتل مؤمن مؤمنا متعمدا من أجل لإيمانه وإنما قد يقتله سرقة أو غصبا أو لآى غرض آخر سوى الإيمان .

٢ — ولو فرضنا جدلا أن الآية فى المؤمنين فيمكن تفسير الخلود بالمسكت الطويل وليس بالمسكت الأبدى فإن القاتل الذى

مات من غير توبة قد يعذب في جهنم عذاباً بقدر معصيته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة فالخلود الأبدى للكافرين فقط والخلود المؤقت لعصاة المؤمنين .

ويقوم أهل السنة الحديث الشريف : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، على أنه ينفي لكمال الإيمان وليس لحقيقة الإيمان ، قالوا نى يكون ناقص الإيمان أثناء ارتكابه لجريمته .

الرد على المرجئة :

يفهم أهل السنة قوله تعالى وإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، على أن مغفرة ما دون الشرك موقوفة على المعصية الإلهية ، ولا أحد يدري هل يشملها العفو الإلهي أم لا ؟

والآية لا تنفي التعذيب المؤقت وكذلك الحديث الشريف « من مات لا يشرك بالله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق » .

فهل دخول الجنة يكون ابتداءً بلا تعذيب أو يكون بعد تعذيب مؤقت ؟ كلاهما جائز ولا حرج شرعاً .

فالمعصية تضر مع الإيمان وقد يعذب المؤمن عذاباً مؤقتاً .

الرد على المعتزلة :

ما استدلل به المعتزلة عموميات ليست نصا في الموضوع ولا ترفع الخلاف ، فقولهم تعالى «ومن بعض الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ، .

قالوا حتى إن كان كافرا فهو خالد في النار أبدا وإن كان فاسقا مرتكباً لكبيرة دون الكفر فهو معذب عذاباً مؤقتاً وقد يعفو الله عنه لقوله تعالى «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» .

وقد جاءت أحاديث كثيرة تفيد انقطاع العذاب عن المؤمنين :
فقد أخرج مسلم في صحيحه حديثاً مطولاً في الشفاعة رواه أبو سعيد الخدري جاء فيه :

يقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط .

وفي حديث آخر : يدخل الله أهل الجنة الجنة ، يدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ثم يقول : انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون فيها حمداً

قد امتحشوا ، فيلقون في نهر الحياة أو الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السبل ، ألم تروا كيف تخرج صفراء ملتوية ، (١) .

وقد جاء في حديث صحيح وصف هؤلاء بعد أن خرجوا من نهر الحياة فقال : فيخرجون كالزواجر ، في رقابهم الحنوط ، يعرفهم أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء الله ، الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه .

كما جاء في الحديث الصحيح وصف نعيم هؤلاء الذي منحه الله لهم فقال : ثم يقول ادخلوا الجنة فإرايتموه فهو لكم ، فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : لكم هندي أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضى فلا أسخط عليكم بعده أبدا .

وقد يتوهم البعض أن هذا الاتجاه يشجع على المعصية ويدفع للناس إلى مقارفة الذنوب . . وهذا خطأ فإن المسلم يعيش بين أمن وخوف فلا يقنط ولا يسرف ، قال تعالى «مَنْ هُوَ قَانِتَ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ» (٢) ،

(١) فيخرجون — بالبناء المجهول — ، والحم — بضم الحاء وبفتح الميم — الفهم ، وامتحشوا — بفتح التاء والحاء — احترقوا ، الحيا : المطر ، والحبة — بكسر الحاء — بذر البقول والعشب .
(٢) سورة الزمر — ٩ .

وقد جعل القرآن اليأس من أوصاف الكافرين فقال : إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، (١) .

وجعل القنوط من أوصاف الضالين فقال : قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، (٢) .

وجعل الإصراف في الأمل من أوصاف الخاسرين فقال :
وأما منوا مكر الله فلا يأن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، (٣) .

وقد كان رسول الله ﷺ أول العابدين وأول المؤمنين وخير خلق الله أجمعين ومع ذلك قام من الليل حتى تفترت قدماه وكان يستغفر الله في اليوم مائة مرة .

(١) سورة يوسف — ٨٧

(٢) سورة الحجر — ٥٦

(٣) سورة الأعراف — ٩٩

(٣ — قضية التكفير)

موقف أهل السنة

من النصوص المكفرة

جاءت نصوص شرعية رتب الكفر على بعض الكبائر مثل قوله ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

« لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

والجواب أن الكفر نوعان : كفر عملي وكفر اعتقادي .

وهذا التقسيم بناء على أن الإيمان تصديق وعمل ، فالكفر المرتبط بالتصديق هو المخرج عن الملة ، والكفر المرتبط بالعمل هو كبيرة وليس مخرجا عن الملة .

وإن قلنا إن الإيمان تصديق فقط فالكفر في هذه النصوص كفر مجازي على سبيل التشبيه ، إذ الكفر الحقيقي المخرج عن الملة هو المتصل بالتصديق والاعتقاد .

وقد جعل الإمام البخاري في صحيحه بابا من كتاب « الإيمان » بعنوان : « باب كفران العشير وكفر دون كفر » ،

وساق هذا الحديث بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال : قال النبي ﷺ : أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء ، يكفرن
قيل : أي يكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ،
لو أحسن إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت
منك خيرا قط .

وفي شرح ابن حجر على الحديث ساق هذا النص :

قال القاضى أبو بكر بن العربي فى شرحه : مراد المصنف أن
يبين أن الطاعات كما تسمى إيمانا ، كذلك المعاصى تسمى كفرا ،
لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر الخرج من الملة .

ثم كتب الإمام البخارى بإها آخر عقب الباب السابق بعنوان :
« باب المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا
الشرك » وساق هذا الحديث بسنده عن المعمر بن قيس : لقيت أبا ذر
بالربذة وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسألت عن ذلك فقال :
لنى سابت رجلان فغيرته بأمه ، فقال لى النبى ﷺ : يا أبا ذر
أغيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، إخوانكم خولكم (١)
جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما

(١) خول الرجل حشمه وخدمه ، والواحد خال ، وقد
يكون الخول واحدا ، وهو اسم يقع على العبد والأمة ، والتخول
التعهد ، والتخويل : التملك .

بأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكفوم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم
فأعينوه . .

وعلق الإمام ابن حجر قائلا :

إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من
أخلاق الجاهلية ، والشرك أكبر المعاصي ولهذا استثناه ، ومحصل
الترجمة (٢) أنه لما قدم أن المعاصي يطلق عليها « الكفر » مجازا ،
على إرادة كفر النعمة لا كفر الجحد — أراد أن يبين أنه كفر
لا يخرج عن الملة . .

فهم قوله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

في سورة المائدة جاء قوله تعالى :

«إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين
أسلموا للذين هادوا ، إو الربانيون والأحبار بما استحفظوا من
كتاب الله وكانوا عليه شهداء^(١) ، فلا تخشوا الناس واخشون ،
ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك
هم الكافرون» (٢) .

(١) العنوان الذي ذكره البخاري .

(٢) سورة المائدة — الآية ٤٤

إن سورة المائدة من السور التي تناقش اليهود والنصارى ،
وتلزمهم ضرورة الإيمان برسالة محمد ﷺ الذي جاء بالحق وصدق
المرسلين .

ولكن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا وطمسوا البشارات
فكانوا أحق الناس باسم الكفر ، فهم لم يسيدوا وفق المنهج الإلهي
في الاعتقاد .

قال تعالى ولقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ،
وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك
بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من
أنصار^(١) .

وقال جل شأنه : قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ،
من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنازير ، وهيمد
الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل^(٢) .

ثم إن للآية سبب نزول يرتبط بإنكار اليهود لحكم الله في
الرجم ، عندما جاءوا إلى رسول الله يستفتونه في أمر رجل وامرأة

(١) سورة المائدة — ٧٢

(٢) سورة المائدة — ٦٠

زانيا ، عسى أن يجدوا لديه حكما مخففا ، وزعموا أن التوراة ليس فيها حكم إلهي بشأن الزنا .

وقد وبخهم القرآن على موقفهم هذا ، وشفع عليهم ، وتعجب من فعلهم فقال « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ^(١) .

ولهذا فإن قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

يعنى من أنكر مشروعية الحكم وكذب بالتنزيل ورفض الإيمان بمنهج الله .

أما الحاكم الذى لا يلتزم فى حكمه بشرع الله عز وجل دون إنكار له فهو مرتكب لكبيرة من الكبائر ، يوصف بالفسق والظلم ولا يخرج عن الملة .

وعلى هذا المعنى جمهور العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء . وقد ذكر الإمام الرازى فى تفسيره أربعة معانٍ ضعفها كلها ثم ذكر رأيا خامسا ارتضاه ونصه :

قال عكرمة : قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله » إنما يتناول

من أنكر بقلبه وجهه بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله ، وأقر بلسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده ، فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية ، وهذا هو الجواب الصحيح ، والله أعلم^(١).

والأحظ أن الإمام الرازي جعل التارك للحكم حاكماً بما أنزل الله طالما أنه مؤمن به مصدق بقلبه . أي أن الحكم وعدم الحكم مرتبط بمسألة التصديق القلبي .

وقال الإمام القرطبي في تفسيره :

قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » و « الظالمون » ، و « الفاسقون » ، نوات كلها في الكفار ، ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء ، وعلى هذا المعظم ، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقيل : فيه إضمار أي ومن لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن ، وجهداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قاله ابن عباس ومجاهد ، فالآية عامة على هذا .

قال ابن مسعود والحسن : هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أي معتقداً ذلك ومستحللاً له

(١) التفسير الكبير ١٢ ص ٧ ط دار الفكر .

فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راسب محرم فهو من فساق
المصلدين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر
له ... (١) .

وساق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أقوال العلماء في تفسير
الآية ثم قال :

وأهم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر والظلم والفسق،
كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مراداً به المعصية تارة والكفر
المخرج من الملة أخرى .

ومن لم يحكم بما أنزل الله، معارضة للرسول وإبطالا لأحكام الله
فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة ، ومن لم يحكم بما
أنزل الله معتقداً أنه مرتكب حراماً ، فاهل قبيحاً فكفره وظلمه
وفسقه غير مخرج عن الملة ... (٢) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦ - ص ١٩٠ ط مؤسسة مناهل
المعرفة .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢ - ص ١٠٤ ط
الرئاسة العامة لإدارات البحوث بالرياض .

وقال شارح العقيدة الطحاوية :

وهنا أمر يجب أن يتفطن له ، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة ، ويكون كفرا إما مجازيا وإما كفرا أصغر .. وذلك بحسب حال الحاكم ..

فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب ، وأنه غير فيه ، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله — فهذا كفر أكبر ..

وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله ، وعلمه في هذه الواقعة ، وعدل منه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ، ويسمى كافرا كفرا مجازيا أو كفرا أصغر ..

وإن جهل حكم الله فيما مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطاه ، فهذا غلط .. له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور ، (١) .

هكذا يكون صفاء الفهم لدين الله عز وجل ، بعيدا عن الانفعال للطائش والتقليد الأعمى والغواية المشينة ..

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٣ ط المكتب الإسلامي .

وإن بلاد المسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب قد حكمها
المستعمر الدخيل أحقابا من الزمن ، طمس فيها الهوية الإسلامية ،
وبدد الطاقات وأهلك الحرث والنسل ، فلما حصلت هذه البلاد
على استقلالها وجدت نفسها على مفترق طرق ..

والأمر حينئذ يحتاج إلى مضاعفة الجهد والجهاد لعلاء الأمة
وأمراتها كي يلتقى الجميع على كلمة سواء ، يجددون بها ولاء الأمة
لدينها وإسلامها وتأخذ بأيدي أبنائها إلى صراط الله المستقيم في
رفق ناصح ، ورحمة معلم ، وحكمة داعية ..

المبحث الثالث

الحكم بالكفر

- الآثار الدنيوية
- الحكم على الشخص أو الوصف
- الآثار الأخروية
- موقف المسلم
- لفظ الكفر في القرآن

الحكم بالآثار الدنيوية

الحكم بالكفر حكم شرعي بمعنى أن الله تعالى أمر بالاعتقاد في وحدانيته سبحانه وملائكته الأطهار ورسوله الأخيار وكتبه المقدسة، وشرع لعباده ما يحقق لهم سعادة الدنيا وكرامة الآخرة، فمن أنكر شيئاً مما علم من الدين بدهاة حكم بكفره ..

ويترتب على الحكم بالكفر جانب دنيوي وجانب آخرى :

فالجانب الآخرى هو الخلود في النار أبد الأباد ودمر الداهرين ، قال الله تعالى « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » (١) .

وقال جل شأنه « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً عالدين فيها أبداً ، لا يجدون ولياً ولا نصيراً » (٢) .

(١) سورة آل عمران — الآية ٩١

(٢) سورة الاحزاب — الآية ٦٤ ، ٦٥

والجانب الديوى على قسمين :

١ — إن كان الكافر مرتدًا بعد إيمان فحكمه القتل ولا يمكن من نكاح مسلمة ولا غسل ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين لقوله — ﷺ — في صحيح البخارى : من بدل دينه فاقتلوه .

وقوله — ﷺ — في صحيح مسلم : لا يحمل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الشيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة .

وتنفيذ حكم الردة إنما هو من اختصاص الإمام بعد إجراءات قضائية كالمناقشة وعرض الأدلة وطلب التوبة والإمهال ثلاثة أيام .

والمرتد حينئذ هو إنسان مجاهر بكفره ، داع إلى ضلالاته يخون مجتمع المسلمين ويتربص بهم الدوائر ، فهو أشبه ما يكون بما يسمى حالياً مرتكب الخيانة العظمى ..

أما من كنم عقيدته ولم يظهر ما يخالف الإسلام فأمره إلى الله ونعامله على حسب ما ظهر منه .

٢ — إن كان الكافر بالأصالة والورثة ويعتق ديننا ما فهو هل ثلاثة أقسام :

(أ) كافر يعيش في ديار المسلمين فله حق الذمة ويحظى باحترام المسلمين ويصان دمه وماله وهرضه ، قال تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (١) .

(ب) دولة كافرة تحفظ العلاقات الدولية ولا تعتدى على المسلمين ولا تظاهر عليهم أحدا ، فيصدق فيها قول الله تعالى « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » (٢) .

(ج) دولة كافرة محاربة تتعقب المسلمين وتطاردهم وتعتدى على حمامهم فالجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة .. قال الله تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٣) .

(١) سورة الممتحنة — الآية ٨

(٢) سورة التوبة — الآية ٧

(٣) سورة البقرة — الآية ١٩٠

الحكم على الشخص أو الوصف

الحكم على إنسان ما بالكفر أو بالنكاح كبيرة من الكبائر في آثاره الديوية من إقامة الحدود لا يكون إلا للقضاء ، لقوله ﷺ ولو يعطى الناس بدعوائهم لا دعى رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن البينة على المدعى واليمين على من أنكر ، [حديث حسن رواه البيهقي وبعضه في الصحيحين] فالقضاء يقوم على الشهود والبينات وبذل الجهد في الوصول إلى الحق .

وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أم سلمة زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ سمع جليلة خصم بباب حجرته تخرج لإيهم فقال : إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعلى بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له ، فن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها .

وهذا الحديث الشريف يضعنا أمام ثلاث قضايا مهمة في فلسفة القضاء :

الأولى : قوله ﷺ « إنما أنا بشر » والمقصود هو التنبيه على أن الحاكم أو القاضي لا يعلم الغيب ولا يطلع على بواطن الأمور ، وإنما يحكم بين الناس بالظاهر وما استقر عليه غالب ظنه واطمأن إليه قلبه ، والله يتولى السرائر ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للزوجين المتلاعنين : حسابكما على الله ، أحكما كاذب .

الثانية : قوله ﷺ « فاعمل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له » ، وهنا تظهر أهمية الدفاع والمرافعة والمحاماة ، فإن كل خصم يهتم بأن يظهر بينته وما يؤيد دعواه ، فإن الدعوى بغير دليل لا قيمة لها .

وما على القاضي إلا أن يتفطن لبينة كل من الخصمين ، وأن يجتهد في التعرف على الحق والعدل ، وأن يتحرى الدقة البالغة في جوانب الدعوى كلها ثم بعد ذلك يصدر حكمه الذي توافرت له أسباب القوة واليقين .

الثالثة : قوله ﷺ « فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها » .

هذا القول الكريم يضعنا أمام نقطة مهمة وهي أنه ليس كل حكم قضائي عدلا وصدقا في الواقع ونفس الأمر ، بل القضية مرهونة بالاجتهاد والتحرى والتثبت . . . وكما وقعت أحكام نتيجة شهود الزور ، فمن صدر له حكم قضائي على وجه الخطأ فهو المسئول عنه أمام الله تعالى ، وقد انتهت مهمة القاضي بإصدار الحكم بناء على ما اطمأن إليه من البينات ثم ينتقل الحكم ليصبح أمانة في عنق المحكوم له فهو أدري الناس بموقفه حقا كان أو باطلا .

(٤ — قضية التكفير)

الحكم بالآثار الآخروية

أما الحكم على إنسان ما بالكفر أو بارتكاب كبيرة من الكبائر في آثاره الآخروية فتروك لعدل الله تعالى ، فهو وحده المطلع على خفايا النفوس ، وميزان الله عدل ، لا يظلم مثقال ذرة .

ورب شخص ارتكب جرائم تبدو في أعين الناس كبائرا تؤدي بصاحبها إلى أودية جهنم ولكن له من الأعمال أو المواقف أو النيات ما يحو ذلك كله ، وقد جاءت النصوص كثيرة حول هذا المعنى منها :

١ — خلال فترة الإعداد لفتح مكة عهد رجل من المسلمين يسمى حاطب بن أبي بلتعة وكتب رسالة إلى أهل مكة يعلمهم فيها بما عزم عليه الرسول القائد من غزوهم وتطهير الكعبة من رجسهم ، وحمل الرسالة امرأة من قريش كانت في المدينة وجعل لها جملا على أن تبلغها قريشا .

ونزل الوحي بطالع الرسول ﷺ على ما فعل حاطب ، وبعث الرسول جماعة من فرسان المسلمين يتودعهم على بن أبي طالب وأمرهم أن يلحقوا بالمرأة وينتزعوا الرسالة منها .

ووقف حاطب يدافع عن نفسه قائلا : لا تمجل علي ، إني كنت امرأ مخلصا في قريش ، ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من

المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي .

وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا .

وقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلا : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق .

ولكن الرسول ﷺ قبل عنقه الرجل قائلا :

إن الرجل صدقكم ، إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم .

لقد اتس الرسول الكريم عن ذرا للرجل وقدر له سابق جهاده مع المسلمين .

٢ - أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أهل الأرض فدل على راهب ، فأتاه ، فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ، فقال : لا ، فقتله فأكمل به مائة .

ثم سأل عن أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ، فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين

التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناسا يعبدون الله فاعبد
الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء .

فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه
ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء
نائباً مقبلاً بقلبه إلى الله .

وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط .

فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين
الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى
الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة .

وفي بعض الروايات : د لما أتاه الموت ناء بصدره ،

د فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها .

د فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى ، .

٣ — أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أن رسول
الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً
فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش
فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منى ،
فنزل البئر فإلأخفه ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له

فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجرا فقال :
في كل كبد رطبة أجر ، .

وفي رواية أخرى :

أن امرأة بنينا رأت كلبا في يوم حار ، يطيف بيثر قد أدلع
لسانه من العطش فنزعت له بموقها^(١) فغفر لها ، .

د — أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جندب أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم حدث أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ،
وإن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألى^(٢) على أن لا أغفر لفلان .
فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عمله ، أو كما قال .

ه — أخرج مسلم في صحيحه عن ربيع بن حراش قال :
اجتمع حذيفة وأبو مسعود فقال حذيفة : رجل لقي ربه فقال :
ما عملت ؟ قال : ما عملت من الخير إلا أني كنت رجلا ذاملا فكنت
أطالب به الناس ، فكنت أقبل الميسور وأتجاوز عن الميسور
فقال : تجاوزوا عن عبيد .

قال أبو مسعود : هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول .

(١) الموق — بضم الميم — الخف ، فارسي معرب .

(٢) يتألى — يحلف .

وفي رواية أخرى :

حوسب رجل من كان قبلكم ، فلم يوجد له من الخير شيء .
إلا أنه كان يخاطب الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن
يتجاوزوا عن المعسر ، قال الله عز وجل : نحن أحق بذلك منه
تجاوزوا عنه .

من هذه النصوص يتجلى أن الحكم على الناس بما يلقونه في
الآخرة بأعيانهم هو من اختصاص الله تعالى وحده ، ولا أحد
يتحكم في القدر الإلهي الأعلى ، ولا أحد يملك خواتم رحمة الله ،
وإذا مات إنسان فقد أفضى إلى ما قدم ولا يجوز لمسلم أن يقيم من
نفسه حكما على أعمال شخص بذاته بل تدع ذلك لعلام الغيوب .

موقف المسلم

والمسلم في حياته اليومية مطالب بالحكم على الأوصاف فهو يمتنع المصيبة ويؤكد الوعيد ويلعن كل منحرف بوصفه لا بشخصه، فنقول مثلاً : لعنة الله على الظالمين ، والفاسقين ، والكافرين ، والسارقين . . وهكذا دون أن نخصص شخصاً بذاته أو نخصص إنساناً بعينه فإن العواقب خفية والمبرة بالخواتيم . .

فلا يقال : لعنة الله على فلان حتى ولو كان كافراً فربما تاب وأسلم ، وقد جاءت أحاديث بالنهي عن لعن شخص بعينه ، ففي صحيح البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبداً لله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ قد جلدته في الشراب ، فأقى به يوماً فأمس به الجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يوقى به ، فقال النبي ﷺ : لا تلعنوه فوالله ما علمت (١) أنه يجب الله ورسوله ، وفي حديثه آخر رواه البخاري :

(١) قيل : ما زائدة ، وقيل إن المفعول محذوف أى ما علمت عليه سوء أثم استأف وقال إنه يجب الله ورسوله ، وقيل إن التاء مفتوحة في علمت ، أى أنك لا تعلم أنه يجب الله ورسوله .

أنى النبي ﷺ يسكران فأمر بضربه ، فبنا من يضربه بيده ،
ومنا من يضربه بذهله ، ومنا من يضربه بشوبه ، فليسا انصرف قال
رجل : ماله أخزاه الله ، فقال رسول الله ﷺ لا تسكروا عوق
الشيطان على أخيكم .

وقد جاءت أحاديث بلعن الأوصاف دون الأشخاص ،
ففي صحيح البخارى بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :
لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده ،
وقد ساق البخارى هذا الحديث تحت عنوان ، باب لعن السارق
مالم يسرق .

لفظ اللعن في القرآن

والمتبع لفظ اللعن ومشتقاته في القرآن الكريم يجسد الله ارتباطاً بأوصاف استوجبت اللعن ولم يتعلق بشخص واحد بل ذاته، حتى عندما دعى به على إبليس جيء بالوصف المناسب وهو التمره والشيطنة . . قال تعالى « وإن يدعون لإلشيطاناً مريداً لعنه الله، وقال لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولا ضللتهم ولا مغيبتهم ولا مرنهم فليبدن آذان الأنعام ولا مرنهم فليغيرن خلق الله » (١) .

وعندما جاء اسم إبليس ذكر معه سبب الحكم فقال تعالى : « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » (٢) .

لقد ساق القرآن حكم اللعنة على أوصاف الكفر والظلم والنفاق ونقض الميثاق .. الخ ولتقرأ بعض هذه النصوص :

« إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً » (٣) .

(١) سورة النساء ١١٧:١١٨

(٢) « ص ٧٨:٧٥ »

(٣) « الأحزاب ٦٤ »

«ألا لعنة الله على الظالمين»، (١).

«فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم»، (٢).

وخلال حديث القرآن الطويل عن قصص الأنبياء لم يرد اسم شخص في معرض الحكم عليه بالكفر اللهم إلا هامان وقارون وأبالهب (٣).

ودار الحديث القرآنى عن الملأ الذين كفروا واستكبروا هـ
والصائبين والمجوس والذين أشركوا واليهود والنصارى والأحبار
والرهبان وأصحاب السبت وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل
وأصحاب الرس .. الخ.

وعندما كان الأمر يقتضى تحديد شخص بعينه باعتباره محور
القصة أبى القرآن المجيد أن يذكر اسمه واكتفى بوصفه القريب هـ
وذلك مثل امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة العزيز هـ وابن آدم هـ
وهكذا . . .

(١) سورة هود — ١٨

(٢) سورة المائدة — ١٣

(٣) أما كلمة فرعون فليست اسما وإنما هى لقب لكل من

حكم مصر القديمة ولهذا يقال فرعون موسى فى محاولة لتحديد الفترة
الزمنية .

وَمَا يَرِيدُ الْأَمْرُ هُنَا تَعْظِيماً وَاهْتِمَاماً أَنْ الْمَتَّحِدِينَ فِي هَذِهِ
الْمَوَاقِفِ كَأَنَّهُمُ اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى .. فَمَا بَالُنَا نَحْنُ الْبَشَرُ
الَّذِينَ نَهْضِلُ وَنَنْسَى وَيَقْصُرُ بِنَا الْفَهْمُ ..

إِنَّمَا جَهِيمًا لِاخْوَةِ نَرِيدُ أَنْ نَعِيشَ سَعْدَاءَ بِدِينِ اللَّهِ ، نَتَوَاصَى
بِالْحَقِّ وَنَتَوَاصَى بِالْإِصْبَرِ وَنَقْدِمُ الْمَصِيبَةَ مُخْلِصَةً إِنْ حَادَ عَنْ الطَّرِيقِ ،
وَلَسْنَا نَمُتُّهُ وَإِنَّمَا نَمُتُّهُ هَلْ ، وَلَسْنَا نَحْقَرُهُ وَإِنَّمَا نَحْقَرُ الْمَعْصِيَةَ ،
فَإِذَا عَادَ فَرَحْنَا بِهِ ، وَإِذَا اسْتَمَرَّ الْمَعْصِيَةَ أَشْفَقْنَا عَلَيْهِ وَدَعَوْنَاهُ
وَدَعَوْنَا لَهُ ، وَإِذَا جَاهَرَ بِهَا وَأَعْلَنَ دَفَعْنَا بِهِ إِلَى سَاحَةِ الْقَضَاءِ الْعَادِلِ
لِيُطَبَّقَ عَلَيْهِ الْحُدُودُ الشَّرْعِيَّةُ زَجْرًا إِنْ عَلَى شَاكَلَتَهُ وَجَبْرًا لِذَنْبِهِ عَلَى اللَّهِ
أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ .

المبحث الرابع

الحاكمية

- مفهوم الحاكمية
- معاني حاكمية الله تعالى
- الحكومة الإسلامية

مفهوم الحاكمية

شاع بين الجماعات الإسلامية أن الحاكمية لله وأن المنازعة في حاكمية الله كفر .

وقد يكون مفهومهم صحيحاً لكن تعبيرهم خطأ ، فالحاكمية نسبة إلى الحاكم ، والحاكم في دنيا الناس لا يكون إلا بشراً ، وقد يسمى إماماً أو خليفة أو أميراً أو ملكاً أو رئيساً .. فهذه كلها أسماء لمفهوم واحد هو سياسة الدنيا بالدين وقيادة الناس بشرح الله .. فالحاكمية كالإمامة والخلافة هي للبشر وليست لله بمعنى أن الحاكم بشر يحكم بما أنزل الله ..

ولستنا نعرف لفظ الحاكمية على مدى التاريخ الإسلامي إلا في الحقبة الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري ، عندما أطلقها الشيخ أبو الأعلى المودودي ، ورددها الشهيد سيد قطب ، وتمسك بها بعض الشباب .. وهو اصطلاح لا دليل عليه^(١) .

وقد جاء القرآن المجيد لإستناد الحاكمية للبشر في كثير من آياته ، قال تعالى : إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً^(٢) .

(١) رفع الحواجز شمار ولا حكم إلا لله ، وردده عليهم الإمام علي بن أبي طالب وقال : كلمة حق أريد بها باطل ..
(٢) سورة النساء - ١٠٥

فالفعل «لتحكم» فاعله ضمير مستتر تقديره «أنت» ، يرجع إلى رسول الله ، فيكون الحاكم هو الرسول ومنهج حكمه هو ما أنزل الله .

وفي آيات سورة المائدة التي يكثر الاستدلال بها نهي الحاكم بشراً يطالب بالحكم بما أنزل الله وإلا أصبح كافراً أو فاسقاً أو ظالماً . قال تعالى :

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ،

فن يحكم ومن لا يحكم لا يكون إلا بشراً ..

وقد دعا القرآن إلى تحكميم البشر في هدى الحج فقال « فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » (١) .

وفي الخلافات الزوجية فقال « وإن خفتم شقاق بينهما فامشوا حكماً من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاً ما يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً » (٢) .

(١) سورة المائدة — ٩٥

(٢) سورة النساء — ٣٥

وسمى القرآن القضاة حكاما فقال « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (١).

وفي المقابل نجد أن القرآن المجيد أطلق على الله تعالى اسم « أحكم الحاكمين » فقال « ونادى نوح وبه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » (٢).

كما أطلق على الله تعالى اسم « خير الحاكمين » فقال : « واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » (٣).

فالتمثيل بلفظ « خير الحاكمين » أو « أحكم الحاكمين » يسمح بإطلاق لفظ الحاكم على الله تعالى وعلى البشر لكن بمعنىين مختلفين كضمان كافة الألفاظ التي يجوز فيها الاشتراك فإن ما يخص الله تعالى ليس كمثل شيء ، فهو في حقيقته مختلف تماما عما يماثله في الإطلاق على البشر كالعالم والكريم والحليم والرشيد ... الخ .

(١) سورة البقرة — ١٨٨

(٢) سورة هود — الآية — ٤٥

(٣) سورة يونس — ١٠٩

(• — قضية التكفير)

معاني حاكمية الله تعالى

وقد جاء إطلاق لفظ الحاكم على الله تعالى بثلاثة معان هي :

١ — الحكم الكوني :

بمعنى السنن الكونية والنواميس التي تحكم الكائنات فهذا حكم الله وحده لا يستطيع أحد تغيير السنن أو إرجاءها أو التمرده عليها ونقرأ في هذا المعنى آيات منها :

قوله تعالى : قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ، أبصر به وأسمع ، ما لهم من دونه من ولي ، ولا يشرك في حكمه أحداً (١) .

فتدبر الله للسكائنات والأحداث خاص به وحده لا دخل للبشر في ذلك .

وقوله تعالى : أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (٢) .

فنقصان الأرض بمعنى إظهار الإسلام على أنقاض دولة

(١) سورة الكهف — ٢٦

(٢) سورة الرعد — ٤١

الكفر ، أو بمعنى اختلاف أحوالها وتبدل أحداثها أو بمعنى تأثير الماء في اليابسة ، فتلك من كونه متى أرادها الله وقعت ولا راد لحكمه ..

وقوله تعالى : قل إني على بينة من ربي وكذبت به ، ما عندي ما يستعملون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين^(١) .
فمؤلاء المكذبون يستعملون العذاب استمراء بالوعد فأمر الله رسوله أن يعلن الحقيقة الكبرى وهي أن الجراء والعقارب صرهم بإرادة الله وحده وله الحكمة البالغة في التعجيل أو التأخير ..

٢ - الحكم التشريعي :

بمعنى أن الله تعالى وحده هو الذي ينزل الوحي على من اصطفى من عباده ليبين للناس الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام في العقائد والمعاملات ، وهو سبحانه أعلم بما يصلح عباده ويصلح لهم ..

ونقرأ في هذا المعنى قول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محل الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد ،^(٢) .

(١) سورة الأنعام - ٥٧

(٢) سورة المائدة - ١

فالحكم هنا بمعنى التشريع المتعلق بالمعسود والمأكولات
الحيوانية في الحل والحرم ..

ونقرأ قول الله تعالى « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها
أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا
تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .

فالحكم هنا تشريعي يتعلق بالعقيدة القائمة على التوحيد
الخالص ..

وفي شأن النساء المؤمنات اللاتي هاجرن بعد صلح الحديبية
نزل حكم إلهي باستثنائهن من تطبيق شرط إهانة من جاء مسلماً ،
قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات
فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن
إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما أنفقوا
ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن ،
ولا تمسكوا بهنم الكوافر ، واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا
ذلكم حكم الله بحكم بينكم والله أعلم حكيم » (٢) .

والحكم الإلهي التشريعي هو تكليف للبشر بمسكن قبوله

(١) سورة يوسف — ٤٠

(٢) سورة الممتحنة — ١٠

فيكون الإيمان ، ويمكن رده فيكون الكفر ، وقد جعل الله
للمؤمنين جزاء هو بركة الدنيا وحسن جزاء الآخرة ، وجعل
للكافرين ضئلك الحياة وسوء المنقلب .

قال تعالى : قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإما
يا أيها الذين آمنوا فأتبعوا هدي فإيا فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض
هن ذكرى فإن له معيشة ضئلك ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب
لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها
وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات
ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، (١) .

٣ - الحكم الآخروي :

بمعنى أن الله تعالى يبعث الناس من قبورهم ويسوقهم للحساب
والجزاء ، ويقف الخلائق جميعا ليحكم بينهم الواحد ، القهار قال
تعالى : الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ، (٢) .

وقال جل شأنه : قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم
الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، (٣) .

(١) سورة طه — ١٢٣ : ١٢٧

(٢) سورة الحج — ٦٩

(٣) سورة الزمر — ٤٦

الحكومة الإسلامية

والذى نريد أن نؤكد أنه هو أن الحاكم فى الإسلام رجل لا عصمة له ، وهو مطالب أن يلتزم بشرع الله ودينه ، وليس شرطاً أن يكون أفضل الناس وأكبره بالتأكيـد أكثرهم حملاً ..

والحاكم المسلم يأتى به أهل الحل والعقد باختيار حرة واستفتاء عام يسمى البيعة ، ويقوم حكمه على العدل والشورى ..

قال الله تعالى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً (١) .

وأمر الله رسوله فقال : وشاورهم فى الأمر (٢) .

وجعل الله واسطة عقد صفات المؤمنين الشورى فقال :

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » (٣) .

(١) سورة النساء - ٥٨

(٢) سورة آل عمران - ١٥٩

(٣) سورة الشورى - ٣٨

ولعمل قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة
لأئمة المسلمين وعامتهم تعد أساسا صحيحا لما يسمى الآن مجلس الشعب
أو مجلس الأمة أو مجلس الشيوخ . فإن مهمة هذه المجالس هي
المراقبة لتصرفات الحاكم ومحاسبة المسئولين . .

وإن القول بأن الديمقراطية كفر قول ملقى على عواهنه
ليس له مصداق الفهم للدين ولا الدنيا ، فإنه لا مشاحة في الاصطلاح .
كذلك فإن القول بأن السلطة للشعب كفر مراهمقة فكرية ، فإن
مجتمع المؤمنين هو الذي يراقب الحاكم وهو الذي يعينه وهو الذي
يعزله . .

ثم إن في مصالح الدولة ما يحتاج إلى تشريعات ليس لها نص
في كتاب الله ولا سنة رسوله . .

ولهذا كانت الأدلة الشرعية قائمة على :

- | | |
|--------------------|---------------------|
| ١ — القرآن الكريم | ٢ — السنة الصحيحة |
| ٣ — الإجماع | ٤ — القياس |
| ٥ — الاستحسان | ٦ — المصالح المرسلة |
| ٧ — العرف | ٨ — الاستصحاب |
| ٩ — شرع من قبلنا . | |

ويمكن مراجعة معاني هذه الأدلة في كتب أصول الفقه (١) .

ومن هنا فإن ما يسمى بالحكومة الدينية — كما هو المصطلح الغربي المسمى الشيوقراطية — والتي تقوم على نظرية الحق الإلهي وعصمة الملوك وتقديس الحكام ، لا علاقة لها بالإسلام وتتنافى مع عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين ، وقد رفضها القرآن المجيد بمثل قوله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون» (٢) .

ولعل المناظرة التي جرت في معرض الكتاب الدولي بالقاهرة بتاريخ ٤ من رجب سنة ١٤١٢ هـ — ١٩٩٢/١/٨ م حول الحكومة الدينية والحكومة المدنية ، في مواجهة ساخنة بين الإسلاميين والعلمانيين — كانت في غير محلها ، فالحكومة الدينية لا تمثل الإسلام ، والحكومة المدنية ليست وقفا على العلمانيين .

فإن الحكومة الإسلامية نموذج فريد بين أنواع الحكم

(١) راجع كتاب «أصول الفقه» ، للشيخ عبد الوهاب خلاف .

(٢) سورة النوبة — ٣١

التي تعارف عليها البشر قديما وحديثا .. إنها ليست دينية معصومة
وليست مدنية قائمة على أهواء البشر ، لسكنها إسلامية ترقض حكم
الله وتجتهد في شئون الدنيا ، تعتصم بالله وتمتلك ناصية المادة ، تقيم
حدود الله وتممر الأرض والحياة ..

إنها الحكومة الإسلامية وكفى .. ١١

وإن الخطبة الأولى التي وجهها الخليفة الأول أبو بكر الصديق
إلى الأمة عقب توليته توضع ما تريد .. لقد قال :

أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنتم
فأهينوني وإن أسأت فقوموني ..

الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى هندی
حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى
أخذ الحق منه إن شاء الله ..

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خسرانهم الله بالذل ،
ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا همهم الله بالبلاء ..

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله
فلا طاعة لي عليكم .. (١)

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣٠١ ط مكتبة المعارف.

المبحث الخامس

الحكم على الفرق الإسلامية

— الأصول والفروع

— الحكم بالتكفير هل الفرق

الأصول والفروع

انقسم المسلمون إلى فرق متعددة في الأصول وفي الفروع ..
ويعنى بالأصول الأمور المتعلقة بالعقائد ، ويعنى بالفروع الأمور
المتصلة بالعبادات والمعاملات .

وقد حكى الإمام الشهرستاني التفرقة بين الأصول والفروع
فقال :

« قال بعض المتكلمين : الأصول معرفة الباري تعالى
بوحديته وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم وبياناتهم ، وبالجملة كل
مسألة يتمين الحق فيها بين المتخصصين فهي من الأصول .

ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة وطاعة ،
والمعرفة أصل والطاعة فرع ، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان
أصوليا ، ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعيا .

فالأصول هي موضوع علم الكلام والفروع هي موضوع علم
الفقه .

وقال بعض العقلاء : كل ما هو معقول ويتوصل إليه بالنظر
والاستدلال فهو من الأصول ، وكل ما هو مظنون أو يتوصل إليه
بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع ، (١) .

(١) الملل والنحل - تحقيق محمد سيد كيلاني ج ١ ص ١ ط الحلبي .

وعلى هذا فالفرق الأصولية المتصلة بالعقائد مثل الجبرية والقدرية والسلف والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية إلخ....

وفرق الفروع مثل الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة .

وهناك فرق تجمع في خلافها بين الأصول والفروع مثل الشيعة والسنة ، فبينهما خلاف عقدي يتعلق بالإمامة هل هي ركن من أركان الدين أو مصلحة من مصالح المسلمين ؟

وهل الإطاعة بالنص والتعيين أو بالشورى والاختيار ؟

ولكل من السنة والشيعة مذاهب فقهية تتعلق بالعبادات والمعاملات .

ولا حرج في الاختلاف حول الفروع فهو لا يمثل شقاقا في الأمة طالما كان في إطار ضوابط الاجتهاد بل إنه يعد من باب الرحمة ويسر التشريع .

أما اختلاف الأصول فهو اختلاف مدموم ، ورغم المذمة التي تلحق أصحابه إلا أنه لم يصل بين الفرق الإسلامية (١) إلى مرتبة أن يقال هذا كافر وذاك مؤمن .

(١) الفرق الغالية كأصحاب ابن سبأ والباب والبهاء ليست إسلامية لأن الخلاف معها يتعلق بأصل من أصول الدين وهو النبوة وختم الرسالة .

فالمسلمون رغم اختلافاتهم تجمعهم كلمة التوحيد ولا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويتعاملون حول السكينة المشرفة ، وتخضع قلوبهم للقرآن الكريم ، ويلتزمون بأركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج .
واختلافهم حول بعض مسائل العقيدة لا يخرجهم عن هذه الأصول .

وعلى سبيل المثال : اختلاف علماء الفرق في مسألة الصفات الإلهية هل هي عين الذات أو غير الذات ، أو لا هو ولا غيره .
فذهب المعتزلة والفلاسفة إلى الأول ، وجمهور المتكلمين إلى الثاني ، والأشعرى إلى الثالث .

وقدم الشيخ الهذلي تحقيقاً لقول الفلاسفة بعينية الصفات بأن ذاته تعالى من حيث إنه مبدأ الانكشاف الأشياء عليه .
ولما كان مبدأ الانكشاف على ذاته بذاته ، كان طالما بذاته .

وكذا الحال في القدرة والإرادة وغيرها من الصفات ، قالوا : وهذه المرتبة أعلى من أن تكون الصفات مغايرة للذات ، فإننا مثلاً نحتاج في انكشاف الأشياء علينا إلى صفة مغايرة لنا ، قائمة بنا ، وهو تعالى لا يحتاج إليها ، بل بذاته تنكشف الأشياء عليه .

ولذلك قيل : محصل كلامهم في الصفات وإثبات نتائجها

وغاياتها ، وأما المعتزلة فظاهر كلامهم أنها عندهم من الاعتبار العقلية التي لا وجود لها في الخارج .

والقول المعتمد أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التي تتعلق بها تكفير أحد الطرفين ، ونقل الشيخ الهذلي عن بعض الأصفياء أنه لا يرى بأساً في اعتقاد أحد طرفي النقي والإثبات في هذه المسألة (١) .

وساق الإمام الشهرستاني نماذج أخرى فقال :

المختلفان في مسألة الكلام ليسا يتواردان على معنى واحد بالنقي والإثبات .

فإن الذي قال : هو مخلوق ، أراد به أن الكلام هو الحروف والأصوات في اللسان ، والرقوم والكتابات في الكتابة ، قال : وهذا مخلوق .

والذي قال : ليس بمخلوق ، لم يرد به الحروف والرقوم ، وإنما أراد به معنى آخر فلم يتواردا بالتنازع في الخلق على معنى واحد .

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاسيين — تحقيق

د. سليمان ديا - ١ ص ٢٧٨

وكذلك في مسألة الرؤية فإن النافي قال : الرؤية إنما هي اتصال شمع بالمرئي ، وهو لا يجوز في حق البصائر تعالى ، والمثبت قال : الرؤية إدراك أو علم مخصوص ، ويجوز تعلقه بالبارى تعالى ، فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد ، إلا إذا رجع الكلام إلى إثبات حقيقة الرؤية فيتفقان أولا هل أنها ماهية؟ ثم يتكلمان نفيا وإثباتا ، وكذلك في مسألة الكلام يرجعان إلى إثبات ماهية الكلام ثم يتكلمان نفيا وإثباتا ، وإلا فيمكن أن تصدق القصةان ، (١) .

(١) الملل والنحل - تحقيق محمد سيد كيلاني ١٥ ص ٢٠٢
(٦ - قضية التكفير)

الحكم بالتكفير على الفرق

وإذا كانت بعض الفرق تكفر مخالفيها فنحن لا نكفر هؤلاء
المكفرين وإلا كنا مثاهم في الضلالة وإنما ننصدهم ونوضح لهم المنهج
ونرجو لهم المغفرة والاستقامة .

ولقد قال الإمام الباجوري في شرحه على الجوهرة :

« ولم يكفروا (أى الخوارج) بتكفير مرتكب الذنوب ،
مع أن من كفر مؤمنا كفر لأنهم قالوا ذلك بتأويل واجتهاد » .

وهناك حديث صحيح يقول فيه النبي ﷺ :

« إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما » .

وفي رواية :

أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان
كافرا قال وإلا رجعت عليه » .

وفي رواية :

ومن دعا رجلا بالكفر أو قال : عدو الله وليس كذلك
إلا حار عليه » .

وفي توجيه هذه النصوص أوجه ذكرها الإمام النووي هي :

أحدهما أنه محمول على المستحل لذلك وهذا يس كفر ، فعلى هذا
معنى « باء بها » أى بكلمة الكفر ، وكذا « حار عليه » وهو
معنى « رجعت عليه » ، أى رجع عليه الكفر ، فبإزاء حار ورجع
بمعنى واحد .

والوجه الثانى : معناه رجعت عليه نقيضته لأخيه ومعهبة
تكفيره .

والثالث : أنه محمول على الخوارج المكفرين المؤمنين ، وهذا
الوجه نقله القاضى عياض رحمه الله عن الإمام مالك بن أنس . وهو
ضعيف ، لأن المذهب الصحيح المختار الذى قاله الأكثرون
والمحققون أن الخوارج لا يسكرون كسائر أهل البدع .

والوجه الرابع : معناه أن ذلك يؤول به إلى الكفر ، وذلك
أن المعاصى كما قالوا — يريد الكفر ، ويخاف على المكث منها أن
يكون عاقبة شقوها المصير إلى الكفر ، ويؤيد هذا الوجه ما جاء
فى رواية لأبى عوانة الاسفراينى فى كتابه المخرج على صحيح مسلم
وفإن كان كما قال وإلا فقد باء بالكفر ، وفى رواية « إذا قال لأخيه
يا كافر وجب الكفر على أحدهما » .

الوجه الخامس : معناه فقد رجع عليه تكفيره ، فليس الراجع
حقيقة الكفر بل التكفير لكونه جعل أخاه المؤمن كافرا فكأنه
كفر نفسه ، إما لأنه كفر من هو مثله ، وإما لأنه كفر من لا يسكفره

إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام .. والله أعلم (١) .

وقد ساق الإمام أبو حامد الغزالي موقفه من قضية تكفير الفرق فقال :

المتزلة والمشبهة والفرق كلها سوى الفلاسفة ، وهم الذين يصدقون ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ، ولا يشتغلون بالتأويل لمصلحة الكذب بل بالتأويل واسكنهم غطاثون في التأويل — فهو لا . أمرهم في محل الاجتهاد .

والذي ينبغي أن يجمل إليه المحصل الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصرحين بقول « لا إله إلا الله » محمد رسول الله خطأ .

والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة آمون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم ، وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بجنتها » .

ثم قال الغزالي : ودليل المنع من تكفيرهم أن الثابت عندهم بالنص تكفير المكذب للرسول ، وهو لا يسوا مكذبين أصلا ، ولم يشب لنا أن الخطأ في التأويل موجب للتكفير ، فلا بد من دليل

عليه ، وثبت أن العصمة مستفادة من قول « لا إله إلا الله » قطعا ، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع .. ، (١) .

ولعل مما يتأكد به رأى الغزالي هنا حديث أسامة بن زيد ، ففي صحيح مسلم بسنده عن أسامة قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة ، فصباحنا القوم فهزمنهم ، ولحقنا أبا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لى : يا أسامة أقتلته بعدما قال « لا إله إلا الله » ؟ قلت يا رسول الله إنما كان متموذا ، فقال : أقتلته بعدما قال « لا إله إلا الله » ؟ فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .

لقد استشعر أسامة عظم الذنب حتى تمنى أن يكون إسلامه بعد هذه الحادثة المؤلمة وليس قبلها لأن الإسلام يجب ما قبله ويمحو ما سلف من الذنوب . .

وجاءت روايات تصنيف مزبدا من الحوار بين الرسول الكريم وبين أسامة .

ففي رواية : قال الرسول ﷺ : أقال لا إله إلا الله وقتلته ١٩

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٦ ط صبيح سنة ١٩٦٢

قال أسامة : يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح ..

قال الرسول ﷺ : أفلا شققت عن قلبه حتى تعمم أقالها

أم لا ؟

فما زال يكررها .

وفي رواية أخرى :

قال الرسول الكريم : لم قتلته ؟

قال أسامة : يا رسول الله أوجع في المسلمين وقتل فلانا

وقلانا ، وسمي له نفراً .. وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال لا إله إلا الله .

قال الرسول ﷺ : أقتلته ؟ !

قال أسامة : نعم .

قال الرسول ﷺ ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت

يوم القيامة ؟ !

قال أسامة : يا رسول الله استغفر لي .

قال الرسول ﷺ : وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت

يوم القيامة ؟ !

فجعل لا يزيده على أن يقول كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا

جاءت يوم القيامة ؟ !

المبحث السادس

حديث افتراق الأمة

— فصوص الحديث وتعداد الفرق

— شرح العلماء للحديث

— تعقيب وتعليق

• خطأ الحصر

• المراد بالأمة

• مفهوم الفرقة الناجية

• المراد من قوله «كلها في النار» ..

نصوص الحديث وتعداد الفرق

يتردد كثيراً حديث مشهور على ألسنة العلماء حول الفرق الإسلامية ، ويتخذونه البعض ذريعة للتكفير . .
وقد حظى هذا الحديث بأبحاث كثيرة واجتهادات متعددة
وذكره علماء الفرق في مقدمة كتبهم ، ونسوق هنا نماذج لأقوال
الباحثين :

١ — الإمام البغدادى ت — ٤٢٩ هـ :

بدأ الإمام عبد القاهر البغدادى كتابه « الفرق بين الفرق »
ببيان الحديث المأثور في افتراق الأمة ، وساق مجموعة
روايات منها :

• رواية أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترق
اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين
وسبعين فرقة . وتفرق أمى على ثلاث وسبعين فرقة » .

• رواية عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « لو أتى
هل أمى ما أتى هل بنى إسرائيل ، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين
وسبعين ملة وستفرق أمى على ثلاث وسبعين ملة ، تريد عليهم ملة » .

كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : يا رسول الله من الملة الواحدة التي تنقلب ^(١) ؟

قال : ما أنا عليه وأصحابي .

• رواية أنس عن النبي ﷺ قال : إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة .
ثم علق الإمام البغدادى قائلا ^(٢) :

وقد علم كل ذى عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبي عليه السلام لم يرد بالفرق المذمومة التي عدّها من أهل النار — فرق الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين ، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين :

أحدهما : قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم في فروع الفقه ، و فرق الفقه كلها عندهم مصيبون .

والثاني : قول من يرى في كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه وتخطئة الباقين من غير تضليل منه للمنطى . فيه .

(١) أي تنقلب راجعة عن النار .

(١) الفرق بين الفرق ص ٦ ط دار الآفاق الجديدة — بيروت .

ولنما فصل النبي عليه السلام بذكر الفرق المذمومة — فرق أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية في أبواب العدل والتوحيد أو في الوعد والوعيد أو في بابي القدر والاستطاعة أو في تقدير الخير والشر ، أو في باب الهداية والضلالة ، أو في باب الإرادة والمشيئة أو في باب الرؤية والإدراك . أو في باب صفات الله عز وجل وأسمائه وأوصافه ، أو في باب من أبواب التعديل والتجويز أو في باب من أبواب النبوة وشروطها ونحوها من الأبواب التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة من فريقى الراى والحديث على أصل واحد خالفهم فيها أهل الأهواء الضالة من القدرية والخوارج والروافض والنجارية والجهمية والمجسمة والمشبهة ومن جرى مجراهم من فرق الضلال . .

ثم هد الإمام البغدادي الفرق الضالة وحاول الإلتزام بالعدد الوارد ، وحين أحس بتكاثر عددها هن اثنتين وسبعين فرقة أخذ يخرج بعض الفرق عن دائرة الإسلام مثل الباطنية فقال (١) :

وليس الباطنية من فرق ملة الإسلام بل هي من فرق المجوس على ما نبينه بعد هذا وظهروا في أيام محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بخراسان ...

وحين تحدث عن الروافض قال (١) :

فأما غلاتهم الذين قالوا بالهوية الأئمة وأباحوا محرمات الشريعة
وأستقوا وجرب فرائض الشريعة كالبيانية والمقيرية والجناحية
والمنصورية والخطابية والحلولية ومن جرى مجراهم فسام من فرق
الإسلام وإن كانوا منتسبين إليه .

وحين تحدث عن الخوارج قال (٢) :

واليزيدية منهم أتباع ابن يزيد بن أنيس ليست من فسرق
الإسلام أقولها بأن شريعة الإسلام تفسخ في آخر الزمن بغى يبعث
من المعجم ، وكذلك جملة المعجزة فرقة يقال لها الميمونية ليست
من فرق الإسلام لأنها أباحت مسكاح بنات البنات وبنات البنين كما
أباحته المجوس ...

وما زال إحساسه بكثرة الفرق مسيطرا عليه حتى إنه دمج
بعض الفرق في بعض قال (٣) :

وأما البخارية فإنها اليوم بالرى أكثر من عشر فرق ، ومزجها
في الأصل إلى ثلاث فرق برغونية وزعفرانية ومستدركة .

(١) المرجع السابق ص ١٧

(٢) المرجع السابق ص ١٨

(٣) المرجع السابق ص ١٩

٢ - الإمام الشهرستاني ت ٥٤٨ هـ :

ألف الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني كتابه
« الملل والنحل » ، وذكر في مقدمته الأولى عن بيان تقسيم أهل العالم
ما يتعلق بالفرق فقال (١) :

فأهل الأهواء ليست تنضبط مقالاتهم في عدد معلوم ، وأهل
الديانات قد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها ، فافترقت
المجوس على سبعين فرقة ، واليهود على إحدى وسبعين فرقة ،
والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، والمسلمون على ثلاث وسبعين
فرقة ، والناجية أهدأ من الفرق واحدة ، إذ الحق من القضيتين
المتقابلتين في واحدة .

ولا يجوز أن يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائع
التقابل إلا وأن تقتسما الصدق والكذب ، فيكون الحق في إحداهما
دون الأخرى . ومن المحال الحكم على المتخاصمين المتضادين في أصول
المعقولات بأنهما محققان صادقان .

وإذا كان الحق في كل مسألة عقلية واحداً ، فالحق في جميع
المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة ..

(١) الملل والنحل ١ ج ١ ص ١٣ - تحقيق محمد سيد كيلاني .

ولأننا عرفنا هذا بالسمع ، وعنه أخبر التنزيل في قوله هو وجل
« ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (١) ، وأخبر النبي عليه
الصلاة والسلام « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية
منها واحدة وأباقون هلكي ، قيل ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة
والجماعة ، قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم
وأصحابي .. »

وقال عليه الصلاة والسلام دلائل طائفة من أمتي ظاهرين على
الحق إلى يوم القيامة .

وقال عليه الصلاة والسلام « لا تجتمع أمتي على ضلالة ، ... »

وأرجع الإمام الشهرستاني أصول الفرق إلى أربع هي :
القدرية — الصفائية — الخوارج — الشيعة .

وجعل كل أصل ينشعب إلى فرق ، وأوصلها إلى ثلاث وسبعين
فرقة ثم قال (٢) :

وقد نهجت الفرق الإسلامية وما بقيت إلا فرقة الباطنية ، وقد
أوردتهم أصحاب التصانيف في كتب المقالات إما خارجة عن الفرق
وإما داخلة فيها ، وبالجملة هم قوم يخالفون الاثنين والسبعين فرقة .

(١) سورة الأعراف — الآية ١٨١

(٢) الملل والنحل ص ١٩٠

٣ - الإمام ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ :

ألف الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي كتابه « تلبيس إبليس » ، وبدأه بباب الأمر بلزوم السنة والجماعة ، وذكر بعض الأحاديث في ذلك منها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بالجمالية فقال : قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : من أراد منكم بحبوبة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد .

ثم ساق الإمام ابن الجوزي مجموعة روايات حول افتراق الأمة منها :

• رواية ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل ، حذو النمل بالنمل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي ، قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه .

« رواية معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال : ألا إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قام فينا فقال : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمي أقوام تجاري^(١) بهم تلك الأهواء كما يتجاري الكلب بصاحبه ، »

وحاول الإمام ابن الجوزي حصر هذه الفرق فجعل أصولها ستة وهي :

المروية — القدوية — الجهمية — المرجئة — الرافضة — الجبرية .

ثم ادعى أن كل أصل ينقسم إلى اثني عشرة فرقة فيكون المجموع اثنتين وسبعين فرقة كلها هالكة إلا أهل السنة والجماعة

(١) بحذف إحدى التامين وأصلها تتجاري أي تدخل وتسرى تلك الأهواء كما يسرى داء الكلب — يفتح الكاف واللام — الذي يعرض للإنسان من عض الكلب .

شرح العلماء للحديث

في كتاب : « عون المعبود » شرح سنن أبي داود، قال العلامة أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي (١) .

« افترقت اليهود ... إلخ ، هذا من معجزاته ﷺ لأنه أخبر عن غيب وقع .

قال العلامة : قال شيخنا : ألف الإمام أبو منصور هبة القاهر ابن طاهر التيمي في شرح هذا الحديث كتابا قال فيه : قد علم أصحاب المقاولات أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد بالفرق المذمومة المختلفين في فروع الفقه من أبواب الحلال والحرام ، وإنما قصد بالذم من مخالف أهل الحق في أصول التوحيد ، وفي تقدير الخير والشر ، وفي شروط النبوة والرسالة ، وفي وإالة الصعابة وما جرى مجرى هذه الأبواب ، لأن المختلفين فيها تد كفر بعضهم بعضا بخلاف النوع الأول فإنهم اختلفوا فيه من قصده تكفير ولا تفسيق للدخالف فيه .

فيرجع تأويل الحديث في افتراق الأمة إلى هذا النوع من

(١) ج ١٢ ص ٣٤٠ تحقيق عبد الرحمن عثمان طه المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

(٧ — قضية التكفير)

الاختلاف وقد حدث في آخر أيام الصعابة خلاف القدونية من معبد الجهنى وأتباعه، ثم حدث الخلاف بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى أن تكاملت الفرق الضالة اثنتين وسبعين فرقة، والثالثة والسبعون هم أهل السنة والجماعة وهي الفرقة الناجية

وفي شرح العقائد المضنية لجلال الدين الدواني قال (١) :

قال النبي ﷺ [ستفترق أمتي] أي أمة الإجابة وهم الذين آمنوا به ﷺ، وهو الظاهر فإن أكثر ما ورد في الحديث على هذا الأسلوب أريد به أهل القبلة .

قال بعض شراح الحديث : ولو حمل على أمة الدعوة لكان له وجه .

وأنت تعلم بعده هذا فإن فرق الكفر أكثر من هذا العدد بكثير .

[ثلاثاً وسبعين فرقة] السنين إما للتأكيد فإن ما هو متحقق الوتوع قريب كما قيل في قوله تعالى دواسوف يعطيك ربك فترضى، أو بمعناه الحقيقي إشارة إلى أن الاختلاف متراخ عن حياته ﷺ

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين — ج ١ ص ٤ تحقيق د. سليمان دنيا ط الحلبي .

وما يتروم من أنه :

إن حمل على أصول المذاهب فهي أقل من هذا العدد .

وإن حمل على ما يشمل الفروع فهي أكثر منه .

توهم فاسد لا مستند له ، لجواز كون الأصول التي بينها مخالفة
معتد بها ، بهذا العدد .

وقد يقال : لعلهم في بعض من الأوقات بلغوا هذا العدد ، وإن
زادوا أو نقصوا في أكثر الأوقات .

[كلها في النار] من حيث الاعتقاد ، فلا يرد أنه : إن أريد
الخلود فيها فهو خلاف الإجماع فإن المؤمنين لا يخلدون فيها .

وإن أريد مجرد الدخول فهو مشترك بين الفرق ، إذ ما من
فرقة إلا وبعضهم عصاة . والقول بأن مصيبة الفرقة الناجية مطلقا
مغفورة بعيد جدا .

ولا يبعد أن يكون المراد استقلال منكمهم في النار بالنسبة
إلى سائر الفرق ترغيبا في تصحيح العقائد .

[إلا واحدة ، قيل ومن هم] أي الفرقة الناجية .

[قال : الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي] ورواه الترمذي .

والأصحاب جمع صعب، جمع صاحب، أو جمع صعب مخفف صعب (١) بمعنى صاحب، وهو من رأى النبي ﷺ مؤمنا به سواء كان في حال البلوغ أو قبله أو بعده، طالبت صعبته أولا .

[وهذه] إشارة إلى مقاصد هذه الرسالة [عقائد] المراد بالعقائد ما يتعلق الفرض بنفس اعتقاده من غير تعلق بكيفية العمل ككونه تعالى حيا قادرا إلى غير ذلك من مباحث الذات والصفات .

وتسمى تلك الأحكام أصولا وعقائد واهتقادية .

يقابلها الأحكام المتعلقة بكيفية العمل كوجوب الصلاة والركاة والحج والصوم وتسمى شرائع وفروعا وأحكاما ظاهرة .

[الفرقة الناجية وهم الأشاعرة] التابعون في الأصول للشيخ أبي الحسن الأشعري ، وهو منسوب إلى « أشعر » وهي قبيلة من اليمن ، وقيل إلى جده « أبي موسى الأشعري » رضي الله عنه .

فإن قلت : كيف حكم بأن الفرقة الناجية هم الأشاعرة وكل فرقة تزعم أنها الناجية ؟

(١) صعب الأولى بفتح فكسر ، والثانية بفتح فكسر مشددة

قلت : سياق الحديث مشعر بأنهم المعتقدون لما روى عن
النبي ﷺ وأصحابه ، وذلك إنما ينطبق على الأشاهرة ، فإنهم
يتمسكون في عقائدهم بالأحاديث الصحيحة للرواية عنه ﷺ وعن
أصحابه رضي الله تعالى عنهم ، ولا يتجاوزون عن ظواهرها
إلا لضرورة ، ولا يسترسلون مع عقولهم كالمعتزلة ومن يحدو
حدوهم ، ولا مع النقل عن غيرهم كالشيعة المتبين لما روى عن أئمتهم
الاعتقاد العصمة فيهم .

تعقب وتعليق

١ — خطأ المحصر :

إن العلماء الذين اهتموا بحصر الفرق وبيان عددها — وقفوا عند زمانهم ونسوا أن الليالي حبل بالمذاهب والآراء والفرق والمعتقدات ، وأن الاجتهادات لا تتوقف .

فيا ترى ماذا هم قائلون بعد ألف عام من تعدداهم للفرق وحصرها ؟ !

وماذا هم قائلون بعد ألفين أو ثلاثة آلاف ؟ !

إن العدد لا مفهوم له وليس مراداً به المحصر ، وهذا يجري كثيراً في أخبار القرآن وقصصه ، ولنقرأ قوله تعالى :

«ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم» (١) .

فالبحر سواء كانت سبعة أو سبعين أو سبعمائة لن تنفذ كلمات الله .

ولنقرأ قوله تعالى :

«استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين» (١) .

فلاستغفار سبعين مرة أو أقل أو أكثر ان يغير حكم الله في المنافقين .

ومن هنا فلا متمسك بالعدد ثلاثا وسبعين فرقة من الفهم القاصر للحديث الشريف .

وقد جهد علماء الفرق أنفسهم في الوقوف عند هذا العدد فقاموا بعمليات التحليل والتركيب والقيض والبسط في حصر الفرق بما لا طائل من وراءه ، فالبغدادى جعل الخوارج عشرين فرقة ، وابن الجوزى جعلهم اثني عشرة فرقة .

٢ — المراد بالامة :

إن تفسير الامة في قوله دأمتى، بأنها الامة الإسلامية ليس من اليقين في شيء. فإن أمة الرسول هي أمة الدعوة في المقام الاول ولا يراد بها أمة الإجابة إلا بقراين .

وقد سجل القرآن أن كل نبي بعث إلى قومه وخاطبهم بإضافتهم إلى نفسه ، فنادى صالح وهود قومهما بهذا النداء «يا قوم» ، فقال تعالى « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون» (١) .

وقال جل شأنه « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم» (٢) .

ونادى موسى قومه بهذا النداء أيضا وكذلك نوح . . قال تعالى « وإذا قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم» (٣) .

وقال جل شأنه « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك

(١) سورة الأعراف — الآية ٦٥

(٢) سورة الأعراف — الآية ٧٣

(٣) الصف — الآية ٥

من قبل أن يأتيهم عذاب اليم قال يا قوم إني أنذير مبين، (١) .

فالقوم هنا بالنأ كيدهم قوم الدعوة، الذين جاءهم النبي وبلغهم دعوة الله وناشدهم اتباعها فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

وجاء لفظ الأمة في القرآن بمعنى أمة الدعوة فقال سبحانه ،
ثم أرسلنا رسلنا تترأ كذا جاء أمة رسوله كذبوه فأنبأنا بعضهم
بعضنا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون، (٢) .

فهذه الآية صريحة في استخدام أمة الرسول بمعنى أمة الدعوة.

وعلى هذا فمحاولة حصر عدد الفرق في دائرة المسلمين ظن
ليس بيقين ، ولو فسرنا الأمة في الحديث بأنها أمة الدعوة لأوحنا
واسترحنا ، فالمسلمون جميعا أمة واحدة في مواجهة أمم الكفر المنتشرة
في العالم والتي تتجدد تحت أسماء ومذاهب وفرق في كل وقت وحين .

وقد حكم الله بأن المسلمين أمة واحدة فقال إن هذه أممكم
أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون، (٣) .

فالمسلمون — رغم اختلافهم — ملة واحدة في مواجهة ملل

(١) نوح — الآية ٢٠١

(٢) سورة المؤمنون — الآية ٤٤

(٣) سورة الأنبياء — الآية ٩٢

فاسدة ، ومذهب واحد في مواجهة مذاهب باطلة ، وفرقة واحدة في مواجهة فرق ضالة .

وما قاله جلال الدين الدواني من بعد حمل الأمة على أمة الدعوة ليس بشيء ، وما عال به رأيه أكثر غرابة ، فالقول بأن فرق الكفر أكثر من العدد الوارد في الحديث ، هو قول مرفوض لأن العدد لمفهوم له سواء قلنا إنها أمة الإجابة أو أمة الدعوة .

٣ - مفهوم الفرقة الناجية :

إن قوله ﷺ في وصف الفرقة الناجية بما أنا عليه وأصحابه قضية متفق عليها حتى ولو لم ترد نصا ، فقتضى الإيمان بالرسالة والرسول أن تكون الفرقة الناجية هي أمة الإسلام ، وهم أهل السنة والجماعة بالمفهوم الشرعي .

وكل الفرق الإسلامية تدعى لنفسها أنها أهل السنة والجماعة .

وقد نقل جلال الدين الدواني أن نصير الدين الطوسي حين الفرقة الناجية بأنها الإمامية من الشيعة (١) .

وعينها كثير من علماء الفرق بأنها الأشاعرة .

(١) الشيخ محمد عبده بين المتكلمين والفلاسفة - ص ٢٩

تحقيق د. سليمان دنيا ط الحلبي .

وقال الإمام ابن تيمية : إن الحق الناس بأن تكون هي
الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون
إليه إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله ، وأعظمهم
تميزا بين صحيحها وسقيمها (١) .

واليوم يتنازعها السلفيون وأنصار السنة والعاملون بالجمعية
الشرعية والجماعات الإسلامية بفروعها المتعددة . .

لأننا على يقين بأن الحق لا تحصره فرقة بعينها ، والعصمة
لا تعرف لإمام من الأئمة ، وكل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه
إلا صاحب الروضة الشريفة . .

فقد يكون الحق في مسائل لدى الماتزلة أو الأشاعرة أو
الشيعة . .

وقد تكون هناك آراء نرفضها لدى هؤلاء جميعا . . وقد
يدور الخلاف حول قضايا ليست من أصول الدين ولا يترتب عليها
إيمان أو كفر .

ومن هنا فلنأني أنازع الشمرستانى في قوله :

إذا كان الحق في مسألة عقلية واحدا فالحق في جميع المسائل
يجب أن يكون مع فرقة واحدة ،

فإذا كان المقصود بالفرقة الواحدة الدين الواحد يعني
الإسلام فهذا صحيح وإذا كان المقصود فرقة معينة داخل فرقة
المسلمين فهذا غير صحيح ، فليست كل آراء فرقة معينة عقيدة يجب
التسليم بها أو يجب رفضها ، فالتسليم لكل الآراء أو رفض كل
الآراء لدى فرقة خاصة ليس مما يلزم . .

قال ابن تيمية (١) :

وعما ينبغي أيضا أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين
في أصول الدين والكلام : على درجات ، منهم من يكون قد
خالف السنة في أصول عظيمة ومنهم من يكون إنما خالف السنة
في أمور دقيقة .

ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن
السنة منه ، فيكون محمودا فيما رده من الباطل وقاله من الحق ،
لكن يكون قد تجاوز العدل في رده بحيث سمح به بعض الحق وقال
بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة بدعة أخف منها ،

ورد باطلا بباطل أخف منه ، وهذه حال أكثر أهل الكلام
المنتسبين إلى السنة والجماعة .

ومثل هؤلاء إذا لم يفعلوا ما ابتدعوه قولا يفارقون به جماعة
المسلمين ، يرالون عليه ويعادون كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه
وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك .

ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ،
لهم مقالات قالوها باجتهاد وهي تخالف ما ثبت في الكتاب
والسنة ... ،

٤ - المراد من قوله «كلمها في النار» :

إن قوله ﷺ «كلمها في النار إلا واحدة» لا يعنى كفر باقى
الفرق إن حملنا الأمة على أمة الإجابة ، ودخول المؤمن النار
لا يكون على وجه الخلود الأبدى ، وقد يستحق المؤمن النار
ولكن يغفر الله عنه ، فغفرة ما دون الشرك فى إطار المشيئة لقوله
تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »
ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ، (١) .

والفرق الإسلامية تشترك في أصول الدين وتتوحد عقيدتها في جوهر الإيمان ، وللإمام ابن تيمية كلام طيب في هذا المقام فقد حكى أن السلف والأئمة لم يتنازحوا في عدم تكفير المرجئة والشيعة المفضلة ونحو ذلك ، وقال : ولم تختلف نصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء وإن كان من أصحابه من حكى في تكفير جميع أهل البدع — من هؤلاء وغيرهم — خلافا عنه أوفى مذهبه ، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم ، وهذا غلط على مذهبه وعلى الشريعة .

ثم قال : ومنهم من لم يكفر أحدا من هؤلاء إلحاقاً لأهل البدع بأهل المصالح . قالوا فكما أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدا بذهب فكذلك لا يكفرون أحدا ببدعة . . .

ثم ذكر ابن تيمية فصل الخطاب بالتنبيه على أصليين :

أحدهما : أن يعلم أن الكافر في نفس الأمر من أهل الصلاة لا يكون إلا منافقا فإن الله منذ بعث محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف : مؤمن به ، وكافر به مظهر الكفر ، ومنافق مستخف بالكفر .. ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة ، ذكر أربع آيات في نعمت المؤمنين ، وآيتين في المكفار ، وبضع عشرة آية في المنافقين .

وبناء على هذا الأصل قال ابن تيمية :

فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر ، ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية فإن رؤسائهم كانوا منافقين زنادقة ، وأول من ابتدع الرفض كان منافقا ، وكذلك التجهيم فإن أصله زندقة ووافق .

وهذا المعنى الذى يؤكده ابن تيمية يشير إلى أن أعداء الإسلام قد يتظاهرون بالصلاة وغيرها من العبادات ليثيروا الفتنة ويمحقوا الأمة كما فعل المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ..
ويفرق ابن تيمية بين هؤلاء الزعماء المأجورين المنافقين وبين أتباعهم من طاعة المسلمين فيقول :

ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنا وظاهرا لكن فيه جهل وظلم حتى أخطأ ما أخطأ من السنة ، فهذا ليس بكافر ولا منافق ، ثم قد يكون فيه عدوان وظلم يكون به فاسقا أو عاصيا ، وقد يكون مخطئا متأولا مغفورا له خطاه ، وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه .

الأصل الثانى :

أن المقالة قد تكون كفرا ، كجهل وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتحليل الزنا والخمر والميسر ونكاح ذوات

المحارم ، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب ، وهذا لا يكفر به جاحده كمن هو حديث همد بالإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام ..

فقد لا يحكم بكفره بمجرد شيء مما أنزل على الرسول ، إذا لم يعلم أنه أنزل على الرسول ..

ومقالات الجهمية هي من هذا النوع فإنها جحد لما هو الرب تعالى عليه ولما أنزل الله على رسوله .

ثم علل الإمام ابن تيمية عدم تكفيره لأهل البدع بأموه ثلاثة هي :

١ - التأويل فهم متأولون وليسوا رادين لما أنزل ،

٢ - وأن أصل الإيمان الإقرار بالله وأن أصل الكفر الإنكار لله وهم ليسوا منكرين .

٣ - وأن لهم دلائل وشبهات قد تخفى على كثير من المؤمنين .

وهذه هي عبارته بالنص :

وتنلظ مقالاتهم من ثلاثة أوجه :

أحدهما : أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جدا مشهورة وإنما يردونها بالتحريف ..

الثاني : أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع ، وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع ، فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله فأصل الكفر الإنكار لله .

الثالث : أنهم يخالفون ما اتفقت عاياه الملة كلها وأهل الفطر السليمة كلها لكن مع هذا قد يخفى كثير من مقالاتهم على كثير من أهل الإيمان حتى يظن أن الحق معهم لما يوردونه من الشبهات ،

ويكون أرائك المؤمنون مؤمنين بالله ورسوله باطنا وظاهرا ، وإنما التبس عليهم واشتبه هذا كما التبس على غيرهم من أصناف المبتدعة ، فقولاء ليسوا كفارا قطعاً ، بل قد يكون منهم الفاسق والمعاصي ، وقد يكون منهم المخطئ المفقور له ، وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه .

واستدل ابن تيمية هل ذلك فقال :

وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج والجهمية والاعتزلة والمرجئة أن الإيمان يتفاضل ويتبعض ، كما قال النبي — صلى الله عليه وسلم — يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وحينئذ فتفاضل ولاية الله وتتبعض بحسب ذلك (١) .

(١) راجع مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٣٤٥ : ٣٥٨

(٨ — قضية التكفير)

• ذكر الدكتور عبد الحليم محمود رأياً وجيهاً فقال (١) :

ولكن مما يدعو إلى الارتياح ويشجع الصدور أن الشعراء في ميزانه قد روى من حديث ابن النجار ، وصححه الحاكم باللفظ خريب وهو :

« ستفرق أمي على نيف وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا واحدة » .

وفي رواية عن الديلمي « الهالك منها واحدة » .

وفي هامش الميزان هن أنس عن النبي ﷺ باللفظ :

« تفرق أمي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة » .

وما في هامش الميزان هذا مذکور في تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر ، ولفظه :

« تفرق على بضع وسبعين فرقة ، كلها في الجنة إلا واحدة ، وهي الزنادقة » . أسنده عن أنس .

(١) النفسكبر الفلسفي في الإسلام ج ١ ص ١٠٠ ط مكتبة
الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٨

وقال صاحب كشف الخفاء : ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية الثانية ولو ما لا فتأمل .

٥ - وأخيراً نذكر رأى الإمام ابن حزم ، قال (١) :

ذكروا حديثاً عن رسول الله ﷺ - أن القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة ، وحديثاً آخر : تفرق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة فهي في الجنة .

قال أبو محمد : هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الإسناد ، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد ، فكيف من لا يقول به ؟ ١١٩

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ٢٤٧ - طبعة دار الفكر .

المبحث السابع

موالاة الكافرين

— آيات النهى عن الموالاة

— مفهوم الموالاة

— البر بأهل الذمة

آيات النهي عن موالاة الكافرين

هناك آيات قرآنية تحرم موالاة الكافرين ، وتعرض القضية بأساليب بيانية متعددة ، تنتهي كلها إلى رفض هذه الموالاة واجتنابها ، ويحاول بعض الناس فهم هذا الحكم على أنه قطع لكل علاقة مع غير المسلمين ، ومنع لكل تعامل معهم ، وإعلان للعداوة والبغضاء . ونسوق بعض هذه الآيات ونبين المراد منها :

١ - قال الله تعالى : **لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهَا تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ، (١) .

فالنهي هنا صريح ومباشر ، ويتأكد بسلب الإيمان ممن يقدم على موالاة الكافرين ، وتستثنى الآية الكريمة حالة الغلبة للكافرين والضعف للمؤمنين فتبيح التقية والمداورة بالظاهر لا بالباطن ، وباللسان لا بالقلب حتى يأمن المسلم على دمه وماله وعرضه .

٢ - قال الله تعالى : **دُشِرَ الْمُنَافِقِينَ بَأْنِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْعُرَّةُ ، فَإِنَّ الْعُرَّةَ لَهْ جَعِيمًا** ، (٢) .

(١) سورة آل عمران - الآية ٢٨

(٢) سورة النساء - الآية ١٣٨ ، ١٣٩

تستخدم الآية هنا أسلوب الاستهزاء في قوله « بشر » ، وتصفهم بالإنفاق وتوعدهم بالعذاب الأليم ، إن هؤلاء يطلبون عزة موهومة ويسمعون وراء آمال معسولة حين يوالون الكافرين ويظهرونهم ، مع أن الحقيقة الغائبة عن هؤلاء هي أن العزة كلها لله تعالى ، وهو سبحانه يمنحها عباده المؤمنين ، فإن العقوبة للتقوى ، وإن النصر لرسول الله ودعاة الحق في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

٣ — قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا للكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ، إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار وإن تجد لهم نصيرا ، ^(١) » .

يأتى النهى هنا صريحا مسبوقا ببدء التشريف حق يستحث المؤمنين الصادقين على الالتزام الكامل لحدود الله ، ثم تؤكد الآية أن موالاته الكافرين حجة كافية لإنزال بأس الله وعقابه على هؤلاء المنافقين .

٤ — قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي

بافتتح أو أمر من عنده فيصيحوا على ما أسروا في أنفسهم
نادمين، (١) .

يأتى النهى هنا أيضا صريحا مسبقا بندااء التشریف للمؤمنين،
وعهددا لبعض طوائف الكفر الذين يسكيدون للإسلام وهم اليهود
والنصارى، الذين يعانسون المؤمنين ويترهبون بهم الدوائر،
وتؤكد الآية الكريمة أن موالات هؤلاء الأعداء تخرج المسلم عن
دائرة إسلامه وتهوى به إلى مشاركتهم المآثم، ومشابهتم في الكفر
واجتماعهم على الظلم . . ولن يقرر الله أعين هؤلاء الكافرين
ومواليهم، فستكون عاقبة أمرهم خسرًا، ولات ساعة مندم .

٥ — قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين
اتخذوا دينكم هوى ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم
والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين، (٢) .

تبدأ الآية بالنداء الذى يعقبه النهى معللا بمواقف هؤلاء
الكافرين الذين يستهزئون بشعائر الدين ويسخرون من المؤمنين .

٦ — قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى
وعدوكم أولياء تلاقون إليهم بأخوة وقد كفروا بما جاءكم من الحق،

(١) سورة المائدة — ٥١ : ٥٢

(٢) سورة المائدة — ٥٧

يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم
جهاداً في سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمسدودة
وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعل منكم فقداً ضل سواه
السبيل ، (١) .

هذه الآية الكريمة هي مفتتح سورة الممتحنة ، وتتجلى فيها
الحقيقة كاملة وهى أن هؤلاء الكفار يحسسون بعداوة المؤمنين
ويبسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء لكل ما هو حق وفضيلة ، فن
يقدم على هؤلاء فقد انصرف عن سبيل المؤمنين وخرج عن
دائرة الإيمان .

مفهوم الموالاتة

موالاتة الكافرين هي لإنشاء لأمر أو المؤمنين ، واستعداد
لحزب الشيطان على حرب الله ، ومناصرة لأعداء الأمة ، واختراق
لصفوف المجاهدين .

إنها خيانة للعقيدة ، وجناية على أخوة الإيمان ، وجبن في
مواجهة الأعداء ، وانفاق يثبت العزائم ويدفع إلى الخور ويسوق
إلى الهزيمة .

والآيات السابقة واضحة الدلالة على هذا المعنى تمام الوضوح ،
ولو رجعنا إلى أسباب النزول التي يستعان بها على فهم الآيات
القرآنية لوجدناها تتطابق مع هذا المعنى كل التطابق .

ويسوق العلامة الواحدى حول قوله تعالى ولا يتخذ المؤمنون
الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ما يلي (١) .

قال ابن عباس : كان الحجاج بن عمرو ، وكهمس بن أبي

(١) أسباب النزول للعلامة أبي الحسن علي بن أحمد الواحدى
النيسابورى ص ٧٢ ط مكتبة المتنبي بالقاهرة .

الحقيق ، وقيس بن زيد — وهؤلاء كانوا من اليهود — يباطنون
نفسرا من الانصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر
وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا
هؤلاء اليهود واحذروا ازومهم ومباطنتهم لا يفتنوك عن دينكم ،
فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال الكلبي : نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه
كانوا يتولون اليهود والمشركين يأتونهم بالأخبار ويرجون أن
يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية
ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم .

وقال جبير عن الضحاك عن ابن عباس : نزلت في عبادة بن
الصامت الأنصاري وكان بدريا قبيحا ، وكان له حلفاء من اليهود
فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة : يا أي الله إن معي
خمسة رجل من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم
على العدو ، فأنزل الله تعالى فلا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ،

فواضح من هذه الأسباب لانزول أن الموالات كانت فتنة في
الدين وقام بها المنافقون وأرادوا بها هزيمة المسلمين ، ولم يكن من
المنطق الاستماعة باليهود يوم الأحزاب وهم الذين ظاهروا
المشركين وتحالفوا معهم ضد المسلمين في المدينة .

وإذا اتخذنا نموذجا آخر وليكن سبب النزول لهدو سورة
المتحنة ، لقد كان الرسول ﷺ يحرق لفتح مكة بعد ما نقضت
قريش عهدها الذي قطعتة على نفسها بصالح الحديبية ، وأراد الرسول
الكريم أن يظل الأمر سرا حتى تتحقق المفاجأة العسكرية وليكن
أحد الصحابة وهو حاطب بن أبي بلتعة كتب خطابا إلى قريش يعلمهم
فيه بخبر رسول الله ويكشف لهم الخطة العسكرية ويدعوهم إلى الحيلة
والحذر .

ونزل الرحي على رسول الله ﷺ بتفاصيل الموقف كله
ويعت الرسول من يحضر الخطاب قبل أن يصل إلى قريش ، ويقف
حاطب يدافع عن نفسه : يا رسول الله لا تعجل علي ، إني كنت
أمرا مخلصا في قريش ولم أكن من نفسها وكان من معك من
المهاجرين لهم قرابات يجمعون بها قراباتهم ، ولم يكن لي بمكة قرابة
فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدا .

والله ما فعلته شاكا في ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .
وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وكتابه لا يغنى عنهم شيئا .
فصدق الرسول وعذره ، وقام عمر بن الخطاب وقال :
دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

البر بأهل الذمة

موالاة الكافرين بهذا المعنى السابق تختلف اختلافا كبيرا عن
البر بأهل الذمة والتعاون مع كل من ألقى إلينا السلم ولم يظاهر
علينا أحدا .

فإن شواهد القرآن ووقائع السيرة النبوية تؤكد سماحة
الإسلام والمسلمين ، وتؤكد التعاون المشترك لمصلحة الأمن العام ،
قال الله تعالى « لا يؤمنكم الله « لا يؤمنكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم
من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما
يؤمنكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا
على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، (١) » .

لقد حددت هاتان الآيتان القضية تحديدا تاما ، فالبر
بالمسلمين والنهي عن الموالاة للأعداء المحاربين .

وكلتا الآيتين من سورة الممتحنة التي بدأت بداية حاسمة تنهى
عن موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين .

وإن سورة المائدة التي تكرر فيها النهي عن موالاة الكافرين
المحاربين قد أباحت الموائد المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب
المسلمين، كما أباحت الزواج من نسائهم، فقال تعالى «اليوم أحل لكم
الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم،
والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من
قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي
أخدان» (١).

ونلاحظ أن الآية الكريمة جعلت طعام أهل الكتاب من
الطيبات التي أحلها الله، كما جعلت في نساء أهل الكتاب محصنات
عفيفات يحافظن على طهارة العرض وشرف الحياة الزوجية.

ويحكى البخاري في صحيحه أنه كان غلام يهودي يخدم النبي
ﷺ فرض فأتاه النبي ﷺ يهوده، فقعده عند رأسه فقال له :
أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له أبوه، أطع أبا القاسم،
فأسلم الغلام وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،
فخرج عليه الصلاة والسلام وهو يقول : الحمد لله الذي أنقذه من
النار.

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: اشترى

ورسل الله ﷺ من يهودى طعاما بنسيئة ، وفي رواية ، إلى أجل
ورهنه درعا له من حديثه .

وقد يتساءل البعض قائلا : ألم يكن في المسلمين من يشتري
منه الرسول ؟ والجواب أن هناك حكما كثيرة لهذه المعاملة منها
بيان حلي لجواز معاملة غير المسلمين ، كما أن فيها نوحا من التصامى
وعفة النفس وكرم الهمة لرسول الله ﷺ لأن الصعابة قد لا يأخذون
رهنا من رسول الله ﷺ ، بل قد لا يقبضون منه الثمن ، فمعدل
إلى معاملة اليهودى مثلا يهنيق على أحد من أصحابه .

ولعلنا نذكر أن أحده الموثقين على أمرار هجرة الرسول من
مكة إلى المدينة ، وأحد الذين شاركوا في التخطيط لها والتنفيذ هو
عبد الله بن أريقط وكان مشركا .

وعندما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة عقد معاهدة تاريخية
مع اليهود كفلت للفريقين حرية العقيدة وأمن الجوار ، وجمعت
بين المسلمين واليهود في ميدان المعركة فاقا عن المدينة .

إن هناك مجالات فسيحة للتعاون بين المسلمين أفرادا وجماعات
وبين غير المسلمين في إطار التعارف البشرى وكرامة الإنسان وتبادل
(٩ - قضية التكفير)

المنافع .. قال تعالى «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على
الإثم والمعدران»، (١).

وقال جل شأنه «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن
الله عليم خبير»، (٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) سورة المائدة — ٢

(٢) سورة الحجرات — ١٣

الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٢	المقدمة
٧	المبحث الأول : التوبة
٩	حقيقة التوبة
١٢	مكفرات الذنوب
١٩	المبحث الثاني : حكم مرتكب الكبيرة
٢١	تعريف الكبيرة
٢٣	تقسيم الذنوب إلى كبرى وصغرى
٢٥	مذاهب العلماء في حكم مرتكب الكبيرة
٢٩	رد أهل السنة على المخالفين
٣٤	موقف أهل السنة من النصوص المكفرة
٣٦	فهم قوله تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله ...
٤٣	المبحث الثالث : الحكم بالكفر
٤٥	الحكم بالآثار الدنيوية
٤٨	د على الشخص أو الوصف
٥٠	د بالآثار الآخروية
٥٥	موقف المسلم

الصفحة	الموضوع
٥٧	لفظ الأمن في القرآن
٦١	المبحث الرابع : الحاكمية
٦٢	مفهوم الحاكمية
٦٦	معاني حاكمية الله تعالى
٦٦	الحكم الكوني
٦٧	الحكم التشريعي
٦٩	الحكم الأخرى
٧٠	الحكومة الإسلامية
٧٥	المبحث الخامس : الحكم على الفرق الإسلامية
٧٧	الأصول والفروع
٨٢	الحكم بالتكفير على الفرق
٨٧	المبحث السادس : حديث افتراق الأمة
٨٩	نصوص الحديث وتعداد الفرق
٨٩	أقوال الإمام البندادي
٩٢	» » الشمرستاني
٩٥	» » ابن الجوزي
٩٨	شرح العلماء للحديث
١٠٢	تعقيب وتعليق
١٠٢	خطأ الحصر

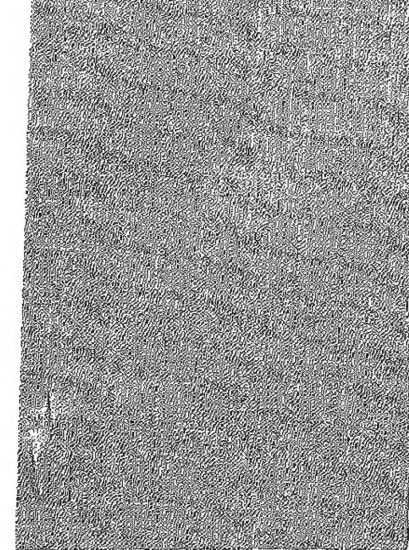
الموضوع	الصفحة
المراد بالامة	١٠٤
مفهوم الفرقة الناجية	١٠٦
المراد من قوله «كلها في النار ..»	١٠٩
رأى ابن تيمية	١١٠
«الشعراني	١١٤
«ابن حزم	١١٥
المبحث السابع : موالات الكافرين	١١٧
آيات النهى عن الموالات	١١٩
مفهوم الموالات	١٢٣
البر بأهل الذمة	١٢٧
الموضوطة	١٣١



رقم الإيداع بدار الكتب

٤٩٦١ لسنة ١٩٩٦ م

I.S.B.N—977—19—0699— 2

٤ من ذو الحجة ١٤١٦ هـ — ٢٢ من أبريل ١٩٩٦ م



Bibliotheca Medica

0285988

To: www.al-mostafa.com